عبد المالك بن أحمد رمضاني

الموعظة الحسنة في الأخلاق الحسنة



مكتبة دار الحديث


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الموعظة الحسنة في الأخلاق الحسنة

ح عبد المالك بن احمد رمضاني ، ١٤٢٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رمضاني ، عبد المالك بن احمد

الموعظة الحسنة في الأخلاق الحسنة / عبد المالك بن احمد

رمضاني - ط ٢ - المدينة المنورة ، ١٤٢٦ هـ

٠ ص ، - سم

ردمك : ١ - ٥٣٠ - ٤٧ - ٩٩٦٠

١ . الأخلاق الاسلامية ٢ . الوعظ والارشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٢.٢ ١٤٢٦/١١٩٦

رقــم الإيــداع : ١١٩٦ / ١٤٢٦

ردمك : ١ ـ ٥٣٠ ـ ٤٧ / ٩٩٦٠

الموعظة الحسنة في الأخلاق الحسنة

تأليف
عبد المالك بن أحمد رمضاني

د ح
مكتبة دار الحديث

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الناشر

مكتبة دار الحديث

رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

تليفون : ٠٧-٢٣٦٢٠٥٣ فاكس : ٠٧-٢٣٦٢٠٥٤

ص.ب: ٤١٥٦

بريد إلكتروني: E-mail: elhadith@emirates.net.ae

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله نَحمَدُه ونَستعينُه ونَستغفرُه، ونعوذُ بالله مِن شُرورِ أنفُسِنا وسَيِّئاتِ أَعْمالِنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلاَ مُضلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هادِيَ له، وأَشْهدُ أن لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وَحدَه لاَ شَريكَ له، وأَشهدُ أنَّ محمَّداً عبدُهُ ورَسولُهُ.

أمَّا بَعْدُ، فهَذه فُصولٌ قَصيرةٌ في الأَخلاَق الحسَنةِ وما يُضادُّها، قصَدتُ بها تَذكيرَ أهلِ الإيمان؛ عَسى اللهُ أن يَجعَلَ فيها النَّفعَ، وقَد رأيتُ أن أَكتَفيَ بذِكْر بَعضِ الأُصولِ العامَّةِ في ذَلكَ دونَ الدُّخول في التَّفاصيلِ والتَّفريعَات الخاصَّةِ بكلِّ خُلُق على حِدَة، إلاَّ ما كانَ من التَّمثيلِ الَّذي الغَرَضُ مِنه إيقافُ القَاريءِ على بَعضِ النَّماذَجِ منَ الأَخلاَق الإسلاَميَّةِ الَّتي كانَت في العُهودِ الزَّاهِرَة، واللهُ وليُّ التَّوفيق.

المَدينَة، في شوَّال ١٤٢٥هـ

مِن فَضائِلِ الخُلُقِ الحَسَن

لَقَد حضَّ اللهُ تَعالى عِبادَه على التَّخلُّق بالخُلُق الحسَنِ في آياتٍ كَثيرَةٍ، ورتَّبَ علَيْها جزاءً عَظيماً، ألاَ وهوَ الجنَّةُ والمَغفِرةُ، فقالَ في لَفظٍ ماتِعٍ مُشوِّقٍ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (آل عمران ١٣٣-١٣٤)، ونوَّهَ بخُلُق الصَّبرِ والصِّدقِ والإنفَاقِ، فقالَ: ﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ (آل عمران ١٧)، كَما نوَّهَ بخُلُق التَّواضعِ والعَفوِ عن المعتَدِي وحِفظِ اللِّسانِ، فقالَ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الفرقان

٦٣)، وقالَ: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (الفرقان ٧٢)، وقَالَ حَاكياً عن أَحَد ابنَيْ آدمَ أَنَّه قالَ لأَخِيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (المائدة ٢٨).

كَما حضَّ رَسولُ الله ﷺ النَّاسَ على الخُلُق الحسَن حضًّا شَديداً، وأَكثَرَ فيهِ من ذَلكَ، حتى إنَّه قيلَ له: « يَا رَسولَ الله! ما خَيرُ ما أُعْطيَ العَبدُ؟ قالَ: حُسْنُ الخُلُق » رَواه ابن ماجَه (٣٤٣٦)، وصحَّحَه الألبانيُّ فيهِ.

وبيَّنَ ﷺ مَا فيهِ من خَير الدُّنيا قبلَ الآخِرَة، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: « إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَحُسْنُ الجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ » رَواه أَحمد (٦/ ١٥٩) بسنَدٍ صَحيح.

وبيَّنَ ثِقلَ وَزنِه يومَ القِيامَة من بَيْن سَائر الأَعْمال، فقالَ ﷺ: « **مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلاةِ** » رَواه أبو داود (٤٧٩٩) والتِّرمذيُّ (٢٠٠٣) واللَّفظُ له؛ وصحَّحَه الألبانيُّ في « السِّلسلة الصَّحيحَة » (٨٧٦).

وقد لاَ يَكونُ المرءُ مُوفَّقاً لعِبادةٍ كَثيرةٍ من طُولِ قِيامٍ وكَثرَةِ صِيامٍ كما وُفِّقَ له العُبَّاد الزُّهَّاد، لكنَّه إذا عُرِفَ بَينَ النَّاسِ بدَماثةِ خُلُقه ولِينِ عَريكَتِه وانكِسارِ نخوَتِه، رفَعَه ذلكَ إلى درَجَة أولَئكَ العُبَّاد الزُّهَّاد، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « **إِنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ** » رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وصحَّحَه الألبانيُّ فيه.

غُفِر لِمُسرِفٍ على نَفْسِه بحُسْن خُلُقِه:

لقَد أخبرَ رَسولُ الله ﷺ عن رَجلٍ من الموَحِّدِين يَأتِي يومَ القِيامَة وقَد فَنِيَت حَسناتُه بسبَبِ إسرَافِه في المَعاصِي، لكن غفَرَ اللهُ له؛ لأَنَّه كانَ مِن خُلُقه معَ الزَّبائِنِ وأهلِ الدُّيُون التَّيسيرُ والتَّجاوُزُ، فقَد روَى البُخاري ومُسلم والنَّسائي ـ واللَّفظُ له ـ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: « **إِنَّ رَجُلاً لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ، وَكَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَيَقُولُ لِرَسُولِهِ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ وَتَجَاوَزْ؛ لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَمَّا هَلَكَ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: هَلْ عَمِلْتَ خَيْراً قَطُّ؟ قَالَ: لَا! إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لِي غُلَامٌ وَكُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا بَعَثْتُهُ لِيَتَقَاضَى، قُلْتُ لَهُ: خُذْ مَا تَيَسَّرَ وَاتْرُكْ مَا عَسُرَ وَتَجَاوَزْ؛ لَعَلَّ اللهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَدْ تَجَاوَزْتُ عَنْكَ** »، وفي رِوايةٍ لمسلم عن أبي مَسعودٍ: « **قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ تَجَاوَزُوا عَنْهُ** ».

الملائكةُ قريبةٌ من ذِي الخُلُق الحسَنِ والشَّياطينِ بَعيدةٌ مِنه:

هَذه مزيَّةٌ عَظيمةٌ لذَوي الخُلُق الطَّيِّب؛ لأنَّ في بُعدِ الشَّياطين عَنهم بُعداً عن مَساويء الأَعمال، وفي قُربِ الملائكَة مِنهم قُرباً من صَالِح الأَعمال، وقَد جاءَ في السُّنَّة ما يدلُّ عليْه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ « أَنَّ رَجُلاً شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبِيُّ ﷺ جَالِسٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ غَضِبْتَ وَقُمْتَ، قَالَ: إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ وَقَعَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ! ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظُلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا للهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَعَزَّ اللهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ يُرِيدُ بِهَا

صِلَةً إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً إِلَّا زَادَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا قِلَّةً »، رَواه أحمد (٢/ ٤٣٦) وأبو داود (٤٨٩٦_٤٨٩٧)، وصحَّحَه الألبانيُّ في « السِّلسلَة الصَّحيحَة » (٢٢٣١).

وأوَّلُ مَن استَنبطَ من هَذه الأُمَّة هَذا الفِقهَ النَّبويَّ العَظيمَ هوَ خَديجةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وذَلكَ عندَ بِعثَة النَّبيِّ ﷺ حينَ نزَلَ علَيْه جِبرِيلُ أوَّلَ مرَّةٍ، وقد خافَ ﷺ على نَفْسه ممَّا جاءَه قبلَ أن يَستَيقنَ أنَّه ملَكٌ، كَما جاءَ في الصَّحيحَيْن من حَديثِ عائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وفيهِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ: « قَالَ لِخَدِيجَةَ: أَيْ خَدِيجَةُ! مَا لِي؟ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ، قَالَ: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: كَلَّا أَبْشِرْ! فَوَاللهِ! لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً؛ وَاللهِ! إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتكسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ ».

فتأمَّلْ كيفَ جعلَت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا هَذه الأَخلاَقَ عواصِمَ

له ﷺ من كَيدِ الشَّياطين وتنزُّلاَتهم، وكانَتْ عندَهَا علاَمةً على أنَّ الَّذي جاءَه هوَ من وَحْي الله لاَ من استِدْراجِ الشَّياطِين له؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يَكُن كَذَّاباً أثِيماً، ودَليلُه من كِتابِ الله عزَّ وجلَّ قَولُ الله تَعالى: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ۝٢٢٣ ﴾ (الشعراء ٢٢١-٢٢٣)، دَلَّ هَذا النَّبأُ الكَريمُ على أنَّ الشَّياطينَ تقتَرِنُ بمَن يُشاكِلُها ويُشابِهُها، والأَفَّاكُ هوَ الكَذوبُ في قَولِه، والأَثيمُ هوَ الفاجِرُ في فِعلِه، كما في « تفسير ابن كَثير »، وهَذه صِفاتُ المُنحَرفينَ خُلُقيًّا، ولذَلكَ فإنَّ الشَّياطينَ كَثيراً ما تتسلَّطُ على ذَوي الخُلُق السَّيِّء بل قَد يَكونُ من أسبَابِ إصابَتِهم بمسِّها، وقَد نبَّهَ ابنُ تَيمية رحمه الله على هَذه الفائدَةِ العَظيمةِ وشرَحَها في « دَقائق التَّفسير » (٢/ ١١٨ـ ١١٩)، فقالَ: « فهَذا ممَّا بيَّنَ اللهُ بِهِ الفَرْقَ بين الكاهِنِ والنَّبيِّ، وبَينَ الشَّاعرِ

والنَّبيِّ، لَمَّا زعَمَ المُفْترُون أنَّ محمَّداً ﷺ شاعِرٌ وكاهِنٌ ... فاستدَلَّت رضي الله عنها بحُسْن عَقْلها على أنَّ مَن يَكونُ اللهُ قَد خلقَه بهَذِه الأَخلاَق الكَريمَةِ ـ الَّتي هيَ مِن أَعظمِ صِفاتِ الأَبْرارِ المَمْدوحِين ـ أنَّه لاَ يُخْزيه فيُفْسِد الشَّيطانُ عقْلَه ودِينَه، ولم يَكُن معَهَا قَبلَ ذَلكَ وَحيٌ تَعْلمُ بهِ انتِفاءَ ذَلكَ، بل علِمَته بمُجرَّد عَقلِها الرَّاجح، وكَذَلك لَمَّا ادَّعَى النُّبوَّةَ مَن ادَّعَاها مِن الكذَّابين مِثْل مُسَيلِمة الكذَّابِ والعَنسي وغَيرِهما، معَ ما كانَ يَشتَبِه مِن أَمْرهم لِمَا كانَ يَنزِل علَيْهم مِن الشَّياطين ويُوحُون إلَيْهم، حَتى يَظنَّ الجاهِلُ أنَّ هَذا مِن جِنسِ ما يَنزلُ على الأَنبِياء ويُوحَى إلَيْهم، فكانَ ما يَبلغُ العُقَلاءَ وما يَرَونه مِن سِيرَتهم والكَذِب الفاحِشِ والظُّلْم ونَحوِ ذَلكَ يُبيِّنُ لهم أنَّه لَيسَ بنَبيٍّ؛ إذ قَد عَلِموا أنَّ النَّبيَّ لاَ يَكونُ كاذِباً ولاَ فاجِراً، وفي الصَّحيحَيْن عن النَّبيِّ ﷺ لَمَّا قالَ له ذُو الخُوَيصرَة: (اعْدِل يَا محمَّد؛ فإنَّكَ لم تَعدِلْ!!! فقالَ له

النَّبيُّ ﷺ: لقَدْ خِبْتَ وخَسِرتَ إن لم أَعْدل، ألاَ تأمَنوني وأَنا أَمينُ مَن في السَّماء؟!)، والرِّوايةُ الصَّحيحَةُ بالفَتْح، أي أنتَ خاسِرٌ خائِبٌ إن لم أَعْدل؛ إن ظنَنْتَ أني ظالمٌ معَ اعتِقادِكَ أني نَبيٌّ، فإنَّكَ تُجوِّز أن يكونَ الرَّسولُ الَّذي آمَنتَ بهِ ظالماً، وهَذَا خَيبةٌ وخُسرانٌ؛ فإنَّ ذَلكَ يُنافِي النُّبوَّةَ ويَقدَحُ فيهَا».

قلتُ: ولمَّا كانَ الرَّسولُ البشَريُّ ﷺ أمِيناً كما في هَذا الحَديثِ، كانَ الَّذي يتنزَّلُ علَيْه رَسولاً ملكيًّا أميناً، يَنزِلُ بوَحيِ ربِّ العالمِين، وهوَ جِبريلُ عليه السلام، كَما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ (الشعراء ١٩٢-١٩٤)، ولمَّا كانَ الرَّسولُ البشريُّ ﷺ عبداً كَريماً، كما قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ (الحاقة ٤٠-٤١)، كانَ الَّذي يتنزَّلُ علَيْه رَسولاً ملكيًّا كَريماً، وهوَ جِبريلُ عليه السلام، كما قالَ اللهُ

تَعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ ﴾ (التكوير ١٩-٢٠).

وبالمُقابِل، فقَد كانَ السَّلفُ يَعرِفونَ كَذِبَ مُدَّعي النُّبوَّة بمجرَّدِ اشتِهارِهم بالكَذِب؛ لأنَّ الكَذِب رأسُ الخَطايَا الخُلُقيَّة وغَيرِها، كما في الصَّحيحَيْن أنَّ الرَّسولَ ﷺ قالَ: « **إنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ** »، وبما أنَّ الشَّيطانَ أفَّاكٌ أي كذَّابٌ، كما في صَحيح البُخاري أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ لأبي هُرَيرة لَمَّا جاءَه الشَّيطانُ سارِقاً: « **صدَقَك وهوَ كَذوبٌ** »، فلاَ بدَّ مِن أن يَقترِنَ بأهلِ الكَذبِ والفُجورِ رَأسُ الأفَّاكين الآثِمين، ألاَ وهوَ الشَّيطانُ، كَما حصَلَ للمُختَار بن عُبَيد الكذَّاب، فقَد روَى ابن أبي حاتم ـ كما في « تَفسير ابن كَثير » (٢/ ١٥٨) ـ بإسنادِهِ عن أبي زُمَيل قالَ: « كنتُ قاعِداً عندَ ابن عبَّاسٍ، وحجَّ المُخْتار بنُ أبي عُبَيد، فجاءَهُ رَجلٌ فَقالَ: يَا ابن عَبَّاس! زعَمَ أبو إسحاق (أي المُختَار) أنَّه

أُوحيَ إلَيْه اللَّيْلة، فَقالَ ابنُ عَبَّاس: صدَقَ!! فنفَرْتُ وقُلتُ: يَقولُ ابنُ عبَّاس صدَقَ؟!! فقالَ ابنُ عبَّاس. هُما وَحْيان: وَحيُ الله ووَحيُ الشَّيطانِ، فوَحيُ الله إلى محمَّدٍ ﷺ، ووَحيُ الشَّيطانِ إلى أَوْليائِهِ، ثمَّ قرَأَ: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ ﴾(الأنعام ١٢١) ».

وأَذكرُ بهَذِه المُناسبَة أَنَّني قرَأتُ كلاَماً حسَناً لابن كَثيرٍ رحمه الله في تَفسير قَولِ الله تعالى: ﴿ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (يونس ١٧)، أحبَبتُ أن أُثبتَه هُنا، قالَ فيهِ: « يَقولُ تَعَالى لاَ أَحَدَ أَظْلمُ ولاَ أَعْتَى ولاَ أشَدُّ إجْراماً ممَّن افتَرَى على الله كَذِباً وتقَوَّلَ على الله وزعَمَ أنَّ اللهَ أرسَلَه ولم يَكُن كذَلكَ، فلَيسَ أحَدٌ أَكبرَ جُرماً ولاَ أَعظَمَ ظُلماً مِن هَذَا، ومِثْلُ هذَا لاَ يخفَى أَمرُه على الأَغبِياءِ، فَكيفَ يَشتَبهُ حالُ هَذا بالأَنبيَاء؛ فإنَّ مَن قالَ هَذِه المَقالَةَ صادِقاً أو كاذِباً فلاَ بدَّ أنَّ اللهَ يَنصِبُ علَيْه مِن

الأدلَّةِ عَلى بِرِّه أو فُجورِهِ ما هوَ أَظْهرُ مِنَ الشَّمْس؛ فإنَّ الفَرْق بينَ محمَّدٍ ﷺ وبَينَ مُسَيلِمَة الكَذَّاب لِمَن شاهَدَهما أَظهرُ مِنَ الفَرْق بينَ وَقتِ الضُّحَى وبَينَ نِصْف اللَّيلِ في حِندِسِ الظَّلْماء، فمِن شِيَم كلٍّ مِنْهما وأَفعالِهِ وكلاَمِهِ يَستَدلُّ مَن له بَصيرَةٌ على صِدْق محمَّدٍ ﷺ وكَذِب مُسَيلِمة الكذَّابِ وسَجاحِ والأَسْود العَنسي، قالَ عَبدُ الله بنُ سَلاَم: (لمَّا قَدِم رَسولُ الله ﷺ المدينَةَ، انجَفَلَ النَّاسُ، فكُنتُ فيمَن انجَفَلَ، فلمَّا رأَيتُه عرَفتُ أنَّ وَجْهَه ليسَ بوَجْه رَجلٍ كَذَّابٍ، قالَ: فكَانَ أوَّل ما سَمِعتُه يَقولُ: يَاأَيُّها النَّاس! أَفْشوا السَّلامَ، وأَطْعموا الطَّعامَ، وصِلُوا الأَرحامَ، وصَلُّوا باللَّيْل والنَّاسُ نِيامٌ، تَدخُلوا الجنَّةَ بسَلاَمٍ)[1]، ولمَّا قَدِم وَفدُ

---

(١) رَواه التِّرمذيُّ (٢٤٨٥) وابنُ ماجَه (١٣٣٤)، وصحَّحَه الألبانيُّ فيهما.

ضِمَام بنِ ثَعْلبة على رَسُول الله ﷺ في قَوْمه بَني سَعْد بنِ بَكْر قالَ لرَسُول الله فيمَا قالَ له: (مَن رفَعَ هَذِه السَّماءَ؟ قالَ: اللهُ، قالَ: ومَن نصَبَ هَذِه الجِبالَ؟ قالَ: اللهُ، قالَ: ومَن سطَحَ هَذِه الأَرضَ؟ قالَ: اللهُ، قالَ: فبِالَّذي رفَعَ هَذِه السَّماءَ، ونصَبَ هَذِه الجِبالَ، وسطَحَ هَذِه الأَرضَ! آللهُ أَرسلَكَ إلى النَّاسِ كلِّهم؟ قالَ: **اللَّهمَّ نعَمْ!** ثمَّ سأَلَه عن الصَّلاَةِ والزَّكاةِ والحجِّ والصِّيام، ويحلفُ عندَ كلِّ واحدَةٍ هَذِه اليَمِين ويحلفُ له رَسولُ الله ﷺ، فَقالَ له: صدَقْتَ ـ والَّذي بعَثَك بالحَقِّ! ـ لاَ أَزيدُ على ذَلكَ ولاَ أَنقصُ)[1]، فاكتَفَى هَذا الرَّجلُ بمُجرَّدِ هَذا، وقَد أَيْقنَ بصِدْقِه صَلَواتُ الله وسَلاَمُه علَيْه بما رأَى وشاهَدَ منَ الدَّلاَئل الدَّالةِ علَيْه، وقالَ حسَّانُ بنُ ثَابت:

لَوْ لم تكنُ فيهِ آيَاتٌ مُبينَةٌ كانَتْ بَديهتُه تَأْتِيكَ بالخَبرِ

---

(١) رَواه البُخاري (٦٣) ومُسلم (١٢).

وأمَّا مُسَيلِمَة، فمَن شاهَدَه مِن ذَوي البَصائرِ عَلِم أَمْرَه لاَ محالَةَ؛ بأَقْوالِه الرَّكيكَةِ الَّتي لَيسَت فَصيحَة، وأَفعالِه غَيرِ الحسنَةِ بَل القَبيحَة، وقُرْآنه الَّذِي يخلدُ بهِ في النَّارِ يَومَ الحَسْرة والفَضيحَة، وكَم مِن فَرْقٍ بَينَ قَوْله تَعَالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة ٢٥٥) إلى آخرها، وبَيْن قَولِ مُسَيلِمة قَبَّحَه اللهُ ولعَنَه: (يا ضِفدَع بِنْت ضِفدَعين! نَقِّي كَم تَنِقِّين، لاَ الماءَ تُكَدِّرين، ولاَ الشَّارِبَ تَمنَعين!!!)، وقَوْله قَبَّحَه اللهُ: (لقَدْ أنعَمَ اللهُ على الحُبْلَى إِذ أخرَجَ مِنْها نسَمَةً تَسْعى مِن بَينِ صِفاقٍ وحَشا!!!)، وقَوْله خلَّدَه اللهُ في نَارِ جهنَّمَ وقَد فعَلَ: (الفِيل ومَا أَدراكَ مَا الفِيل! له خُرْطومٌ طَويلٌ!!!)، وقَولِه أبعَدَه اللهُ عَن رَحمَتِه: (والعاجِنَاتِ عَجناً! والخابِزاتِ خَبْزاً! واللاَّقِماتِ لَقْماً! إهالَةً وسَمْناً، إنَّ قُرَيشاً قَومٌ يَعتَدُون!!!)، ذَلكَ مِن الخُرافَات والهَذَيانات الَّتي يَأنفُ الصِّبْيانُ أن يَلْفظوا بها

إلاَّ عَلى وَجْه السُّخْرِيَّة والاستِهْزاء، ولهَذا أَرغَمَ اللهُ أنفَه، وشَرِب يَومَ حَديقَة المَوْت حَتْفَه، ومُزِّقَ شَمْلُه، ولعَنَه صَحبُه وأهلُهُ، وقَدِموا على الصِّدِّيق تَائِبين، وجاؤُوا في دِين الله راغِبين، فسأَلَهم الصِّدِّيقُ خَليفةُ الرَّسولِ صلَوَاتُ الله وسلامُه عليْه ورَضيَ عَنْه أن يَقرؤوا عليْه شيئاً مِن قُرْآن مُسَيلِمة لعَنَه اللهُ، فسأَلُوه أن يُعْفيَهم مِن ذَلكَ فأَبَى عليْهم إلاَّ أن يَقْرؤوا شَيئاً مِنه لِيَسمعَه مَن لم يَسمَعْه مِن النَّاس؛ فيَعْرفوا فَضْلَ مَا هُم علَيْه منَ الهدَى والعِلْم، فقَرَؤوا علَيْه من هَذا الَّذي ذكَرْناه وأشبَاهِه، فلمَّا فرَغوا قالَ لهم الصِّدِّيقُ ﵁: (وَيْحكم! أَينَ كانَ يُذهَب بعُقولِكم؟! واللهِ! إنَّ هَذا لم يخرُجْ مِن إِلٍّ[1]).

---

(١) قالَ أبو عُبَيد في «غَريب الحَديث» (١/ ١٠٠): «فالإِلُّ ثلاثَةُ أَشيَاء: اللهُ تَعالى، والقَرابَةُ، والعَهْدُ»، وذكَرَ أنَّ المعنى الأوَّلَ هوَ المَقصودُ هُنا، أي أنَّ هَذا الكَلامَ لم يَخرُجْ من ربٍّ.

وذكَرُوا أنَّ عَمْرو بنَ العَاص وفَدَ على مُسَيلِمة وكانَ صَديقاً له في الجاهلِيَّة، وكانَ عَمرو لم يُسْلِم بَعْدُ، فقالَ له مُسَيلمةُ: (وَيْحَكَ يَا عَمْرو! مَاذا أُنزِلَ على صَاحبِكم -يَعْني رَسولَ الله ﷺ- في هَذِه المدَّة، فَقالَ: لقَدْ سَمعتُ أصحابَه يَقْرؤُونَ سُورةً عَظيمةً قَصيرَةً، فقالَ: ومَا هيَ؟ فَقالَ: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ ﴾ (العصر ١-٢) إلى آخِرِ السُّورَة، ففَكَّر مُسَيلِمةُ ساعَةً، ثمَّ قالَ: وأَنا قَد أُنزِلَ عليَّ مِثْلُه، فَقالَ: ومَا هوَ؟ فَقالَ: يَا وَبْر! يَا وَبر![1] إنَّما أنتَ أُذُنانِ وصَدْر، وسائِرُك حَقْرٌ نَقْرٌ[2]!!! كَيفَ ترَى يَا عَمْرو؟ فَقالَ له عَمْرو: والله! إنَّكَ لتَعْلمُ أنِّي أَعْلمُ أَنَّكَ تكذبُ، فَإذا كانَ هَذا

---

(١) دُوَيبةٌ صَغيرةٌ تُشبهُ السِّنَّوْر، كَذا قالَ الخطَّابي كَما في « غَريب الحَديث » لابن الجَوْزي (٢/ ٤٤٩).

(٢) المقصُودُ منها التَّحقيرُ، وكلِمة (نَقرٌ) ذُكِرَت للإتباع، كَما في « لسَان العرَب »، مادَّة: حقر.

مِن مُشرِكٍ في حَالِ شِرْكه لم يَشتَبهْ عليَه حالُ محُمَّدٍ ﷺ وصِدْقُه وحالُ مُسَيلِمة ـ لعَنَه اللهُ ـ وكَذِبُه، فكَيفَ بأُولي البَصائِرِ والنُّهَى وأَصحَابِ العُقُول السَّليمَةِ المُستقيمةِ والحِجَى؟ ولهَذا قالَ تَعَالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ (الأنعام ٩٣)، وقالَ في هَذِه الآيَة الكَريمَةِ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝١٧﴾، وكَذلكَ مَن كذَّبَ بالحَقِّ الَّذي جاءَتْ بهِ الرُّسُلُ وقامَت عليْه الحُجَجُ، لاَ أحَدَ أظلَمُ مِنه، كَما في الحَديثِ: (أَعتَى النَّاسِ على الله رَجلٌ قتلَ نبِيًّا أو قتلَه نَبيٌّ)[1]».

---

(١) أخرَجَه أحمد (١/ ٤٠٧) عن ابنِ مَسعود مَرفوعاً بلَفظ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا،

فانظُرْ إلى عِظَم شَأن الأخلاَق؛ فقَد استُدلَّ بها على صِدْق نبوَّة رَجلٍ، وكَذِب آخَر!

قُربُ مَنزِلَة ذِي الخُلُق الحسَنِ من رَسولِ الله ﷺ:

لاَ يَزالُ المرءُ يُحسِّن خلُقَه حتى يَكونَ يومَ القِيامَةِ في أقرَبِ مَنزلَةٍ من مَجلسِ النَّبيِّ ﷺ، يُدْنَى منه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ يحبُّ صاحبَ الخُلُق الحسَنِ، فعَنْ جَابرٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « إنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إلَيَّ وَأَقْربكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنكُمْ أَخْلاقاً، وَإنَّ أَبْغَضَكُمْ إلَيَّ وَأَبعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِساً يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! قَدْ عَلِمْنَا (الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ)، فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: المُتكَبِّرُونَ » رَواه التِّرمذي (٢٠١٨) وصحَّحَه الألبانيُّ فيهِ، وقالَ

وَإمَامُ ضَلالَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنْ المُمَثِّلِينَ »، وجوَّدَ الألبانيُّ إسنادَه في « السِّلسلَة الصَّحيحَة » (٢٧١).

التِّرمذي: « وَالثَّرْثَارُ هُوَ الكَثِيرُ الكَلام، وَالمُتَشَدِّقُ الَّذِي يَتطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ فِي الكَلامِ وَيَبْذُو عَلَيْهِمْ »، ومَعنى يَبْذُو: أي يَفحشُ في الكَلاَم، ولو لم يَكُن مِّن فَضائل الخُلُق الحسَن إلاَّ ما جاءِ في هَذا الحَديثِ لكفَى؛ لأنَّ تَحصيلَ محبَّةِ الرَّسولِ ﷺ والدُّنوَّ من مجَلِسِه أمرٌ عَظيمٌ! وإذَا كانَ القَاريءُ الكَريمُ قَد انتبَهَ من خِلاَل حَديثِ البَاب السَّابِق إلى أنَّ رَسولَ الله ﷺ كانَ مُجالِساً لأبي بَكْر رضي الله عنه وهوَ في قمَّةِ الخُلُق، فلَمَّا نزَلَ رضي الله عنه عن بَعضِه فارَقَه النَّبيُّ ﷺ على الرَّغم مِن أَنَّه لم يُقارفْ إِثْماً، عرَفَ القَاريءُ الذَّكيُّ سرَّ قُربِ ذِي الخُلُق الحسَن منه ﷺ، وبالله التَّوفيقُ.

إنَّ الكلاَمَ عن فَضائلِ حُسْن الخلُق واسِعُ الأَرجَاء، ولكن حَسْبي أَنَّني ذكَّرتُ أهلَ الإيمَان بشيءٍ منها حتى يَرجِع النَّاسي ويَنتبِهَ الغافِلُ، فَلْيَنظُر امرؤٌ في نَفسِهِ: هَل هوَ بالنَّاسِ لَطيفٌ، بَشيشُ الوَجْه هَشْهاشٌ؟ يَطمئنُّونَ

إلَيْه ويَرتاحونَ إلى جِوارِه، ويتلذَّذونَ بحِوارِهِ، ويَتَسابَقون لمُرافقَتِه في أسفَارِه، يَأمَنون غَوائلَه على أَنفُسِهم كما يَأمَنونَه على أموالِهم وأَعرَاضِهم، بَيعُه سمحٌ، وشِراؤُه سمحٌ، حَديثُه صِدقٌ، ووَعدُه وَفاءٌ، وكلامُه خيرٌ، يدُه عن الشَّرِّ مَكفوفةٌ، وعَينُه عن الخِيانةِ مَصروفةٌ، سلامُه مَبذولٌ لخادِمِه كما هوَ مَبذولٌ لقائِدِه، طلاقَةُ وَجهِه لغَيرِ مَعارِفِه كَما هيَ لذَوي مَصالِحِه، سَخيمةُ قَلبِه مسلُولَةٌ، وظُنونُه بإخوانِه محَسَّنةٌ، وأُخوَّتُه لهم صادِقةٌ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (التوبة ٧١)، فتَخلَّقوا بهذه الأَخلاقِ ما استَطَعتُم لِتكونُوا مِن أَهْل هَذه الرَّحمَة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ لأنَّ مَن رَحمَ رُحِم، فعَنْ عَبْدِ الله بنِ

عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ** » أخرَجَه أبو دَاود (٤٩٤١) والتِّرمذيُّ (١٩٢٤)، وصحَّحَه الألبانيُّ في « السِّلسلَة الصَّحيحَة » (٩٢٥).

العِنَايَةُ بالأَخْلاَق

الإنسَانُ ذو أَثَرةٍ، أي هوَ (أَنانيٌّ) كَما يُقالُ اليَومَ، وأكثرُ الفَسادِ الخُلُقيِّ ناشيءٌ عن الأَثَرة؛ لأنَّ كلَّ فَردٍ يُريدُ أن يَنفرِدَ بما يَراه من الخَيرِ أو أن يُصيبَ منه، وقَد يَطلبُه لنَفْسه ولو لم يَكُن له فيهِ حقٌّ، فهوَ مِن أجلِ هَذا بحاجَةٍ ماسَّةٍ إلى أن يُذكَّر دائماً بأَنَّه يَعيشُ معَ غَيرِه، وأن يُعرَّفَ حُقوقَهم؛ حتى لاَ يَطْغى علَيْه حبُّ النَّفْس فيَغفلُ عن حُقوقِ الغَيْر، ولو تُرِكَ النَّاسُ بغَيرِ خلُقٍ يَضبطُ مُعامَلاَتهم لسادَهم قانُونُ الغابِ كَما يُقالُ، وقد بلغَتْ شَريعتُنا في هَذا قمَّةَ المَكارِمِ؛ فهيَ لم تكتَفِ بالأَمْر بالإحسَانِ إلى الآخَرين والنَّهْي عن السَّطْو على حُقوقِهم فحَسْب، حتى أمرَتْ بالحِلْم معَ المُسيءِ، فقَالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ ﴾

(القصص ٥٥)، أي لكم منَّا السَّلامَةُ منَ الأَذَى، لاَ يَجيئُكم منَّا ما جاءَنَا منكُم منَ العُدْوان، وقَد يَزيدُ الموفَّقون على ذلكَ فيُحسِنون إلَى مَن أَساءَ إلَيْهم، وهَذا قمَّةُ ما يَبْلغُه من الخُلُق الحسَنِ امرؤٌ قد أَذهبَ اللهُ عَنه الأَثَرَةَ وشَهوةَ الانتِقام؛ لأنَّ المؤمِنَ مَطبوعٌ على الأَمْن والأَمَان، كَما قالَ النَّبيُّ ﷺ: « **ألاَ أُخْبرُكم بالمُؤْمن؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ علَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ** » أخرَجَه أحمد (٦/ ٢١) وصحَّحَه الألباني في « السِّلسلة الصَّحيحَة » (٥٤٩)، وهَذا الحَديثُ قالَه الرَّسولُ ﷺ في حجَّة الوَدَاع كَما في الرِّوايَة المُحالِ علَيْها، في خُطبتِه الشَّهيرَةِ العَظيمَة الَّتي جمعَ فيهَا النَّبيُّ ﷺ أُصولَ هَذا الدِّينِ، وكانَ مِنْها التَّركيزُ على الأَخلاَق والحثُّ الشَّديدُ على حُقوقِ النِّساءِ والزَّجرُ الشَّديدُ عن أموَالِ المُسلِمين وأعرَاضِهم ودِمائِهم.

وقالَ ﷺ: « **المُسْلِمُ مَن سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسَانِهِ**

وَيَدِهِ » أخرجه البُخاري من حَديثِ عبدِ الله بن عَمرو، ومُسلمٌ من حَديثِ جابرٍ، فتأمَّلوا لَفظَ: (المسلِمُ) المعرَّف بالألِف واللاَّم، فكيفَ يتأتَّى لمُسْلم أن يُؤْذيَ أَخَاه، وهوَ يَعْلم حَقيقَةً أنَّه أخٌ له في الدِّينِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (الحجرات ١٠)؟! وقَالَ أيضاً: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ (الأنفال ١)، وقالَ أيضاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (الأحزاب ٥٨)، هَذه آياتٌ تحذِّرُ مِن أَذيَّة المُسْلمين، وتحثُّ على إِصلاَح ذاتِ بَيْنهم، كَما حضَّ النَّبيُّ ﷺ على السَّعْيِ في حاجَاتهم وتَفريجِ كُرُباتهم وسترِ أخطائِهم، فقالَ: « **المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم، لاَ يَظْلِمُهُ ولاَ يُسْلِمُهُ، وَمَن كانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ في حَاجَتِهِ، ومَن فَرَّجَ عَن مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنه بهَا**

كُرْبَةً مِن كُرُبَاتِ القِيَامَةِ، ومَن سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَه اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » أخرَجَه البخاري (٢٤٤٢) ومُسلم (٢٥٨٠).

ولقَدْ كانَتْ الآياتُ تنزِل في مكَّةَ قبلَ أن يُهاجِرَ النَّبيُّ ﷺ إلى المَدينَة: مَدينَة التَّشْريع والأَدَب والخُلُق، وهيَ تحثُّ على الخُلُق الحَسَن كما تحثُّ على غَيرِه مِنَ الهُدَى والنُّورِ، وتُبيِّنُ عِظمَ شَأْنه في دِينِنا، وتحضُّ على تَبيُّن مَنزِلته منِ الدِّينِ حَتى لاَ يَغفلَ عَنه المسلِمُون فيُحْرَموا طيبَ العَيْش وحُسنَ العِشْرَة، وهوَ أوَّلِ شيءٍ سَمِعه عبدُ الله بنُ سلاَم رضي الله عنه من رَسولِ الله ﷺ قبلَ أن يُسْلم، معَ ما كانَ يَحوطُهم بهِ رَسولُ الله ﷺ من الدَّعوَةِ إلى التَّوْحيدِ دَائماً وأبَداً، فعَن عَبْدِ الله بن سَلاَم قَالَ: « لمَّا قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ، انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ! قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ! قَدِمَ رَسُولُ الله ﷺ! فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لأَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا اسْتَبْتُّ وَجْهَ رَسُولِ الله ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ،

وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تكَلَّمَ بِهِ، أَنْ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ؛ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلام » رَواه التِّرمذيُّ (٢٤٨٥) وابنُ ماجَه (١٣٣٤)، وصحَّحَه الألبانيُّ فيهما.

ولَمَّا كانَ مَوضوعُ الأَخْلاق بهذه المنزِلَة، فقَد كانَ الرَّسول ﷺ يَدْعو اللهَ أن يُحقِّقَ له الخُلُقَ الحسَنَ، فروَى أحمَد (٦/ ٦٨) بسنَدٍ صَحيح عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي »، وكانَ ﷺ إذا قامَ إلى الصَّلاةِ سأَلَ ربَّه في دُعاءِ الاستِفْتاح أن يَهْديَه إلى أَحسَن الأخلاَق وأن يَصْرف عنه سيِّئَها، فقَد روَى مُسلمٌ عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِب رضي الله عنه عَن رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاةِ قَالَ: « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ، لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ

المُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا؛ إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاقِ؛ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا؛ لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ... » الحَدِيث، ثمَّ قالَ الرَّاوي بعدَه: « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَفْتَحَ الصَّلاَةَ كَبَّرَ، ثُمَّ قَالَ: وَجَّهْتُ وَجْهِي، وَقَالَ: وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ ».

هَذا دُعاءٌ مِنه ﷺ ليُؤَدِّبَه ربُّه ويَهديَه لأَحسَنِ الأَخلاَقِ، وهُو مَنْ هُو! هوَ الَّذي قالَ اللهُ تَعالى له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ (القلم ٤)، هَذه شَهادةٌ مِن الله عزَّ وجلَّ له، بَل مَعلومٌ أَنَّه شَهدَ له بذلكَ الأَعداءُ أيضاً، فقد كانُوا يُلقِّبونَه بالصَّادقِ الأَمينِ.

بل بلَغَت عِنايةُ الرَّسولِ ﷺ بالأَخْلاقِ أن جعَلَ يُفكِّرُ ـ وهوَ على فِراشِ المَوْت ـ في الخَدَم الضُّعَفاء؛

لخَشيَتِه من أن تُهْدرَ حُقوقُهم أو يُغفَلَ عن سدِّ خَلَّتهم، وجعَلَ ذلكَ مِن عامَّةِ وصيَّتِه ﷺ؛ لأنَّهُم قَومٌ لاَ يُحسِنون التَّعبيرَ عن حاجَتهم، وقد يموتُ أحدُهم وحاجَتُه في صَدرِه، فعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «**كَانَتْ عَامَّةُ وَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِنَفْسِهِ: الصَّلاَةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**» رَواه ابنُ ماجَه (٢٦٩٧)، ورَواه أبو دَاود (٥١٥٦) عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: «**كَانَ آخِرُ كَلاَمِ رَسُولِ الله ﷺ الصَّلاَةَ! الصَّلاَةَ! اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»، والحَديثُ صحَّحَه الأَلبانيُّ في «الإِروَاء» (٢١٧٨).

إنَّهُ لمنَ الفَداحَة بمَكانٍ أن تَغلُظ طِباعُ قَومٍ وتَفسدَ أخلاَقُهم وهُم يُنسَبون إلى الإسلاَم، وقَدْ عَلِموا أنَّ من أُصُول الإسلاَمِ تحسينَ الخُلُق كَما مرَّ، وإنَّكَ إذا طالَعْت أَحوالَ كَثيرٍ منهم في مُعاملاَتهم وأخلاَقِهم ليَأخذُ العَجَبُ منكَ مَأخذَه؛ لأنَّه يَبلغُكَ مِن خَبرِهم مَا يُؤذي

سمعَكَ، فكيفَ لو أَطْلَعَكَ اللهُ تَعالى على مَخبرِهم وحَقيقةِ كَيْدِ بَعضِهم لبَعضٍ؟! فكَم تَسمعُ منهم مِن فُحشٍ في القَوْل، وكم ترَى في مُعاملاَتِهم من غشٍّ في وضَحِ النَّهار، وكَم تَجِد فِيهم مِن تَحقيرٍ للخَدَم، ومِن ترفُّعٍ عن مُجالسَة مَن لاَ يَجمعُهم بهم مَصلحةٌ دُنْيويَّةٌ، وكَم ترَى فيهم من تَدابرٍ، حَتى إنَّه لاَ يَكادُ يجتَمعُ اليَومَ رَجُلان على شَرِكةٍ ما من مَتاعٍ رَخيصٍ منَ مَتاع الدُّنيا إلاَّ يَخرُجَان مختلِفَين مُتَهاجرَيْن، كلٌّ مِنْهما يَلمزُ الآخرَ، ولاَ يرَى لأَخِيه حقًّا في حِفظِ عِرْضه بالغَيْب، معَ أنَّ الَّذي فرَّقَ بينَهما إنَّما هوَ المُشاحَّةُ في مَتاعٍ رَخيصٍ منَ الدُّنْيا، وأضحَى من العَسيرِ اليَومَ أن يجِدَ التَّاجرُ مَن يَأمنُهُ على بِضاعتِه ويَطمَئنُّ إليْه ويَكفيهِ مَؤونتَها حتى يَذهبَ إلى بَيْتِهِ مُرتاحَ البالِ قَريرَ العَيْن، بل تَقومُ بَيْنه وبينَ شَريكِه محاسبَةٌ شَديدةٌ ومُراقبةٌ دَقيقةٌ، ثمَّ معَ ذلكَ قد يَكونُ بَيْنهما من الغِشِّ والخِداعِ ما تعجُّ بهِ المَحاكمُ،

وما له من سبَبٍ سِوَى ضَعفِ النَّفْسِ عندَ وُرودِ فِتنَةِ المالِ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ ﴾ (الفجر ٢٠).

ومِن جِهةٍ أُخرَى لاَ يَكادُ الرَّجلُ يُزوِّجُ كَريمتَه زَميلَه أو نَديمَه إلاَّ يحدُثُ بَيْنهما الشِّقاقُ بَعدَ زمَنٍ يَسيرٍ، ثمَّ يَنتَقلُ ذلكَ إلى الأُسرتَين، وما فرَّقَ بَيْنهما إلاَّ الضَّجَرُ وعدَمُ الصَّبرِ على مُراعاةِ حُقوقِ الآخَرينَ، وشيءٌ من حُبِّ النَّفْسِ و[illegible]رَة، ولو عَملوا جميعاً بحَديثٍ واحدٍ من أَحاديثِ رَسولِ الله ﷺ لَتجنَّبوا هَذا الشِّقاقِ، ألاَ وهوَ قَولُه ﷺ: « **لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** » متَّفقٌ علَيْه.

وهَذا التَّقصيرُ الخُلُقيُّ الَّذي تَعيشُه الأُمَّةُ الإسلاَميَّةُ اليَوْم ـ إلاَّ ما شاءَ اللهُ ـ رجَعَ على دِينِهم بالتُّهمَة؛ لأنَّ النَّاسَ يَنسبُون تصرُّفاتِهم إلى الإسلاَمِ، فيُسِيئونَ إلَيْه من حيثُ لاَ يَشعُرون.

مِن آثارِ الخُلُق الحسَن

الخُلُقُ الحسَنُ هوَ بذْلُ النَّدَى وكفُّ الأَذَى، والمَوْصوفُونَ بهِ مَحْمودُونَ عندَ النَّاسِ، سَواء مِنهم المسلِم والكافِر؛ لأَنَّ الخُلُقَ الحسَنَ المبذُولَ إلى الخَلْق هوَ الإحسَانُ إلَيْهم، روَى التِّرمذيُّ (٢٠٠٥) بإسنادٍ صَحيحٍ عن عَبد الله بنِ المُبارَك رحمه الله أنَّه وصَفَ حُسنَ الخُلُق، فقالَ: «هوَ بَسطُ الوَجْه، وبَذْلُ المعرُوفِ، وكَفُّ الأَذى»، والنَّاسُ مجبُولُون على حُبِّ مَن يُحْسن إلَيْهم، حَتى ربَّما أَطاعُوه بمجرَّدِ ذلكَ، وهَذا أَمرٌ فطَرَ اللهُ تَعالى علَيْه بَني آدَم، وقَد قيلَ:

أَحْسِنْ إلى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلوبَهُمُ ... فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإنسانَ إحسَانُ

ولاَ يختَلفُ اثنَانِ مِن المُسْلِمين ـ بَل ولاَ مِن غَيرِهم ـ فيما للأَخلاَق الحسَنَةِ مِن أَثَرٍ بالِغٍ في تَحبيبِ النَّاسِ

بَعضِهم إلى بَعضٍ؛ لأنَّ الفَظاظَةَ تُورِثُ النَّفْرةَ، قالَ اللهُ تَعَالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (آل عمران ١٥٩)، كما لاَ يَخفَى أيضاً ما للخُلُق الحَسَن مِن أثَرٍ في جَمْع الكَلِمة وتَقويَة الصَّفِّ، فعَن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضو تداعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى » رواه البُخاري ومسلم.

ومِن أَنسبِ ما يُضْرب هُنا من أَمثِلةٍ ما رَواه مُسلم عَن مُعَاوِيَةَ بنِ الحَكَم السُّلَمِيِّ قَالَ: « بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي القَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ،

فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ! مَا كَهَرَنِي، وَلاَ ضَرَبَنِي، وَلاَ شَتَمَنِي، قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ».

أَجْمَعُ آيَةٍ فِي مُعَاشَرَةِ النَّاسِ

لقَد فطَرَ اللهُ عِبادَه على مَعرِفَة أكثَرِ المُعاملاَت الخُلُقيَّة مِن حيثُ الحُسنُ والقُبْح، كَما فطَرَهم على حبِّ الخُلُق الحسَن وبُغضِ الخُلُق السَّيِّء، وبحَسَب نَصيبِ المَرْء منَ الخُلُق يَقرُبُ النَّاسُ مِنْه أو يَبعدُون؛ فإن كانَ طيِّبَ النَّفْس ليِّنَ الجانبَ نَظيفَ اللِّسانِ رَأيتَ خُطَى النَّاس إلَيْه تُسابقُ تحيَّاتِهم، وبِشْرَ وُجوهِهم يُسابق تَسْليمَهم، وبهجَةَ قُلوبِهم تُسابِقُ إشراقَةَ وُجُوهِهم، وإن كانَ خَبيثَ الطَّبعِ أورَثَه ذَلكَ بُغضاً في القُلوبِ، ولعنَةً على الألسنَةِ، هَذا الَّذي يُقالُ فيهِ: رُؤيتُه نكَدٌ في العَيْش، والتَّعرُّفُ علَيْه نَدامَةٌ، وفُقْدانُه راحَةٌ.

إنَّ النَّاسَ مَعادنُ، تجدُ فيهم الثَّقيلَ على النُّفوس البَغيضَ إلى القُلُوب، وتجدُ فِيهم الخَفيفَ الحَبيبَ، وتجدُ فِيهم ذَا الإِحْراج يَفرُّ منه الإِنسَانُ والحَيَوانُ، وتجدُ فِيهم

مَن تكادُ الطَّيرُ تحطُّ على رَأسِهِ، وتجدُ فِيهم الأَرْعنَ الفَرْفار، وتجدُ فِيهم ذَا السَّكينَةِ والوَقار، وتجدُ فِيهم اللَّئيمَ القَاسي القَلْب، وتجدُ فِيهم العَطوفَ على المَساكين، وتجدُ فِيهم المتكبِّرَ، وتجدُ فِيهم المُتواضعَ، وتجدُ فِيهم السَّائلَ المُلْحِفَ، وتجدُ فِيهم العَزيزَ المتعفِّفَ، وتجدُ فيهم الشِّرِّيرَ الَّذي لا يَسْلمُ مِنْه أحَدٌ حَتى والِدَاه اللَّذَان رَبَّيَاه صَغيراً، وتجدُ فيهم الكَريمَ الرَّحيمَ الَّذي لاَ تُطاوِعُه نَفسُه على أذِيَّة النَّمْلة.

والمُؤمنُ الحقُّ دائمُ اليَقظَةِ الخُلُقيَّةِ، فهوَ صَادقُ التَّحرِّي لأَدَاء حُقوقِ غَيرِه عليْه، بَعيدُ الأَذيَّةِ لهم؛ حتى إنَّه ليُحاسِبُ نَفسَه على قِشْر الفاكِهَة يُلقِيهِ بطَريقِ النَّاسِ، ويُعاتِبُ نَفسَه على النَّظرَة الَّتي يتأذَّى مِنْها يَتيمٌ أو خادِمٌ أو زَوجَةٌ، ويُحاسبُ نَفسَه على رِيحٍ كَريهَةٍ تُؤذِي جارَه، ويُراقبُ نَفسَه على مُحابَاةِ قَريبٍ في تَقدِيمِه قَبْل غَيرِه من المُستَحقِّين في مُعاملَةِ ما، ويُراقِبُ نَفسَه في

صَوتِ مَركبَتِه كيما يُزعِجَ نائِماً أو يُفزِعَ غافِلاً.

والإنسَانُ مدَنيٌّ بالطَّبْع، يَستَوْحِشُ بنَفْسِهِ، ويَستَأْنس ببَني جِنسِه، فهوَ مخلوقٌ اجتِماعيٌّ، ولاَ بدَّ له من خُلُقٍ ليتمَّ له الاجتِماعُ؛ لأَنَّه سيُقابِلُ مِنَ النَّاسِ أصنَافاً مُتنوِّعَةً، وسيُواجِهُ مِنْهم تَصرُّفاتٍ مُختلفَةً، وأحسَنُها إلَيْه أن يُقدِّموا له خِدمةً ما، فلاَ بدَّ له حِينئذٍ من أن يتجَمَّلَ بخُلُق الشُّكْر، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ**» رَواه أبو داود (٤٨١١) والتِّرمذيُّ (١٩٥٤)، وصحَّحَه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحَة» (٤١٦)، وأشدُّهَا علَيْه أَذاهُم له معَ أَنَّه لاَ بدَّ له منهُم، فَلْيتجمَّل حِينئذٍ بخُلُق الصَّبر؛ فعن ابن عمَرَ ﵄ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**المُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ المُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**» رَواه التِّرمذي (٢٥٠٧) وابن

ماجَه (٤٠٣٢)، وصحَّحَه الألبانيُّ في « السِّلسلة الصَّحيحَة » (٩٣٩)، ولذلكَ كانَ منَ الأُصُول المقرَّرَة في شَريعَتِنا، أن يتَعايَشَ النَّاسُ بَيْنَهم على الخُلُق والأَدَب.

هَذا فيما يُعامِلُه بِهِ النَّاسُ، وأمَّا فيما يُعامِلُ هوَ بِهِ النَّاسَ، فإنَّ المُؤمنَ لاَ يُقصِّرُ في نَفْع الخَلْق، فيَأمرُهم بالمعروفِ ويُرشدُهم إلى مَواضعِ مَراشدِهم ما استَطاعَ، ولذَلكَ كانَتْ أجمَع آيَةٍ في كِتابِ الله في عِشرَةِ النَّاسِ هيَ قَولُه تَعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ (الأعراف ١٩٩)، وقَد شرِحَ ذلكَ ابنُ تَيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقالَ في « مجموع الفَتاوى » (٣٠/ ٣٧٠ ـ ٣٧١): « وهَذهِ الآيةُ فيهَا جمَاعُ الأخلاَقِ الكَريمَة؛ فإنَّ الإنسَانَ معَ النَّاسِ إمَّا أن يَفْعلوا مَعَه[1]

(١) هُنا في الأَصل كَلمَة (غير)، ويَظهرُ أنَّها مُقحمَةٌ؛ لأنَّ الكلاَمَ

ما يحبُّ أو مَا يَكرَهُ، فأُمِرَ أن يَأخذَ مِنْهم مَا يحبُّ مَا سَمَحوا به، ولاَ يُطالِبهم بزِيادَةٍ، وإذَا فعَلُوا مَعَه مَا يَكرَهُ أَعرَضَ عَنْهم، وأمَّا هوَ فيَأْمرُهم بالمَعْرُوف ».

قلتُ: الإنسَانُ معَ غَيرِهِ فاعلٌ أو مَفعولٌ له، والفاعِلُ المحمُودُ هوَ الَّذي لاَ يَكونُ مِنه إلاَّ الخَيْر، والمفعُولُ له إمَّا أن يُفعَلَ له الخيرُ، أو يُفعَلَ له الشَّرُّ، فهيَ ثلاَثُ حالاَتٍ جمَعَتها هَذه الآيةُ لاَ رابعَ لها، وفي كلِّها لاَ يَرَى مِنه النَّاسُ إلاَّ الخيرَ، روَى ابنُ المقريء في « المعجَم » (٥٣٠) عن أيُّوب السَّختِيَاني أنَّه قالَ: « لاَ يَنبُلُ الرَّجلُ

لاَ يَستَقيمُ إلاَّ بحَذْفها؛ فقَدْ أرادَ رَحِمَهُ اللهُ أن يَقولَ: إذَا فعلَ له النَّاسُ بعضَ ما يحبُّ ورُبَّما قصَّروا في تمامِهِ، فَلْيَقنَعْ مِنْهم بذَلكَ، وَلْيَعفُ عمَّا تركوا، خِلافاً لَمن يرَى أنَّ له على الخَلْق حُقوقاً، فإن قصَّروا في أدَائِها أَظلمَت علَيْه الدُّنيا ورَأَى أنَّه ممتَهَنُ القَدْر، فهَذا نوعُ كِبرٍ نسألُ اللهَ أن يُعافيَنا منه، وانظُرْ « مَدارِج السَّالكين » (٢/ ٣٠٤) لابن القيِّم، واللهُ أعلَمُ.

حتى تكونَ فيهِ خَصْلَتان: العِفَّةُ عـمَّا بأَيـدِي النَّـاسِ، والتَّجاوُزُ عمَّا يَكونُ مِنْهم »، وأَقْدَم مَن رَأيتُ نُسبَ إِلَيْه القَولُ السَّابقُ في آيَة الأَعرَاف هوَ جَعفرُ الصَّادقُ رحمه الله، كَما في « فَتح البَاري » (٨/ ٣٦٠).

مِن أدَبِ الصَّحابَة مع رَسول الله ﷺ

روَى البُخاري (٤٨٤٦) ومُسْلم (١١٩) عَنْ أَنَسِ ابنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قالَ: « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، جَلَسَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ فِي بَيْتِهِ، وَقَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَاحْتَبَسَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ، فقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو! مَا شَأْنُ ثَابِتٍ: اشْتَكَى؟ قَالَ سَعْدٌ: إِنَّهُ لَجَارِي، وَمَا عَلِمْتُ لَهُ بِشَكْوَى، قَالَ: فَأَتَاهُ سَعْدٌ، فَذَكَرَ لَهُ قَوْلَ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ ثَابِتٌ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْفَعِكُمْ صَوْتًا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَأَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ! فَذَكَرَ ذَلِكَ سَعْدٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ »، وهَذا لَفظُ مُسلم، وفِي رِوايَةٍ له: « فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ »، ولَفظُ البُخَاري: « أَنَّ

النَّبيَّ ﷺ افتَقَدَ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ؛ **كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبيِّ ﷺ، فَقَدْ حَبطَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**، فَأَتَى الرَّجُلُ النَّبيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ مُوسَى: فَرَجَعَ إِلَيْهِ المَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: **اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ** ».

هَذا الصَّحابيُّ الجَليلُ كانَ على ورَعٍ شَديدٍ، ومَعرِفةٍ صادِقةٍ بقَدْرِ النَّبيِّ ﷺ، وقَد أحزَنَه حالُه أن كانَ جَهُوريَّ الصَّوتِ فيُخاطِبه بصَوتِهِ المُرتَفع، معَ أنَّ ذلكَ كانَ طَبْعاً له ولم يَكُن عن تعمُّدٍ أو تكلُّفٍ، كما في رِوايَةٍ لُمسلم أَنَّهُ قَالَ: « كَانَ ثَابِتُ بنُ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ خَطِيبَ الأَنْصَارِ »، فخافَ أن يُعاقَبَ على صَوتِهِ توهُّماً منه أنَّ الآيَةَ نزَلَت فيهِ؛ لأنَّ اللهَ قالَ في تلكَ الآياتِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ (الحجرات ١-٣)، وهوَ كَغَيرِهِ من الصَّحابَة يَقرؤُون القُرآنَ قِراءةَ سامِعٍ مُطيعٍ، مُتَّهِمينَ أنفُسَهم غيرَ مُغترِّين بأعمالِهم ولاَ مانِّينَ على ربِّهم، وكانَ مِن أَثَر تَقْواه أن برَّأَه رِسولُ الله ﷺ من النَّارِ وبشَّرَه بالجنَّة رضي الله عنه.

وكانَ من هَدْي الصَّحَابة رضي الله عنهم في أَدَبِهم معَ رَسولِ الله ﷺ ما رَواه أَنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه، قالَ: « **إنَّ أَبوابَ النَّبيِّ ﷺ كانَتْ تُقْرَعُ بالأَظافِرِ** » رَواه البُخاري في « الأَدَب المُفْرد » (١٠٨٠)، وصحَّحَه الألبانيُّ في « السِّلسلَة الصَّحيحَة » (٢٠٩٢)، أي إنَّهم لم يَكونُوا يَطْرقونَ بابَه طَرقاً عَنيفاً، ولاَ كانُوا يَقِفون عندَه صارِخِين باللَّيْل

والنَّهارِ لإخراجهِ بعدَ إِخْراجِه، بَل كانُوا يَطرقونَ بَابَه طَرقاً لَطيفاً، فإن كان مُستَيقظاً سَمِعهم بلاَ فزَعٍ، وإن كانَ نائماً لم يَمنَعْه الطَّرقُ اللَّطيفُ راحَتَه ولاَ راحَةَ مَن في البَيْت، وَفي هَذا دَليلٌ على أنَّهم كَانُوا لاَ يَزيدُونَ على الطَّرْق بالأَظَافير، فإن خرَجَ إلَيْهم، وإلاَّ انصرَفُوا ونُفوسُهم رضيَّةٌ غيرُ مُستكبرةٍ، وفي هَذا تَزكيةٌ لنُفُوسهم؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (النور ٢٨)، وفي أدَبهم هَذا استِجابةٌ صَريحةٌ لكِتابِ الله؛ لأنَّ اللهَ تَبارَكَ وتَعَالى يَقولُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ (الحجرات ٤-٥)، وقَد نزلَت هَذه الآياتُ في رجُلٍ منَ الأعرَابِ جاءَ مُنادياً النَّبيَّ ﷺ بصَوتٍ مُرتفعٍ، فعن الأَقْرع بنِ حابِسٍ أَنَّه نادَى رَسولَ الله ﷺ

مِن وَرَاء الحُجُرات، فقَالَ: « يَا رَسولَ الله! فَلَم يُجِبْه رَسولُ الله ﷺ، فقَالَ: يَا رَسولَ الله! ألاَ إنَّ حَمْدي زَيْنٌ، وإنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ رَسولُ الله ﷺ: ذاكَ اللهُ عزَّ وجَلَّ » رَوَاه أحمد (٣/ ٤٨٨)، ورَوَاه التِّرمذيُّ (٣٢٦٧) عن البَراء بن عازِبٍ، وصحَّحَه الألبانيُّ فيهِ، ومَعنى الحَديثِ أنَّ هَذا الأَعْرابيَّ خوَّفَ النَّبيَّ ﷺ من ذمِّهِ له إن هوَ لم يُجِبْه إذ نادَاه، ورغَّبَه في مَدْحه إن هوَ أَجابَه، فأَعْلمَه النَّبيُّ ﷺ أنَّ الذّمَّ والحَمْدَ الحَقيقيَّيْن إنَّما هوَ ما كانَ مِن الله لاَ مِن البَشَر.

أدبُ المتعلِّم معَ المُعلِّم: لقَد جعلتُ هَذه النُّصوصَ من بابِ الخُلُق الحسَنِ على الرّغم مِن أنَّ فِيها ما هو دالٌّ على التَّأدُّب مع مَقامِ النُّبوَّة؛ لأنَّ العُلماءَ فَهموا منها ما هوَ أَعمُّ من ذلكَ، إذ جعَلُوه من بابِ التَّأدُّب معَ المعَلِّم عُموماً، قالَ أبو عُبَيْد القاسِمُ بنُ سلاَّم رَحمةُ الله تعَالى علَيْه: « مَا استَأذَنْت قطُّ على محَدِّثٍ، كنتُ أَنتَظرُه حَتى

يخرُجَ إليَّ؛ وتأوَّلتُ قولَه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾، رواه الخطيبُ في « الجامِع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع » (١/ ١٥٨)، وقال: إذا وجَدَ الطَّالبُ الرَّاويَ نائماً فلا ينبَغي له أن يستأذنَ عليْه، بَلْ يجلِسُ ويَنتظِرُ استيقاظَه أو ينصرِفُ إن شاءَ »، ثمَّ أسندَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّه قالَ: « لمَّا قُبضَ رَسولُ الله ﷺ، قلتُ لرَجلٍ منَ الأنصارِ: هَلمَّ فَلْنسأَل أَصحابَ رَسولِ الله ﷺ؛ فإنَّهم اليَوْم كَثيرٌ، قالَ: فقَالَ: وَا عجَباً لكَ يَا ابنَ عبَّاس! أترَى النَّاسَ يَفتَقرونَ إلَيْك، وفي النَّاسِ مِن أَصحَابِ رَسولِ الله ﷺ مَن فِيهم؟! قالَ: فَتركتُ ذلكَ وأَقْبلتُ أَسألُ أَصحابَ رَسولِ الله ﷺ عَن الحَديثِ، فَإِنْ كانَ لَيَبلغُني الحَديثُ عن الرَّجلِ فآتي بابَه وهوَ قائِلٌ، فأَتوسَّد رِدائِي على بابِهِ تَسْفي الرِّيحُ عليَّ التُّرابَ، فيَخرجُ فيَرَاني، فيقولُ لي: يَا ابنَ عمِّ رَسولِ الله! مَا جاءَ بكَ؟ ألاَ أَرسلتَ إليَّ فآتِيَك؟ فأَقولُ: لاَ! أَنَا

أحَقُّ أن آتيَكَ، فأَسأَلُه عن الحَديثِ، فعاشَ ذلكَ الرَّجلُ الأَنصَاريُّ حتى رَآني وقَد اجتمَعَ النَّاسُ حَولي لِيَسأَلوني، فيقولُ: هَذا الفَتى كانَ أَعْقلَ منِّي »، ورَوى هَذه القصَّةَ أيضاً ابنُ سعد (٢/ ٣٦٨ـ ٣٦٩) بسنَدٍ صَحيحٍ، فانظُرْ إلى هَذا الخُلُق الرَّفيعِ، وقَد كانَ ابنُ عبَّاسٍ ﵄ مِن بَيت النُّبوَّة ومِن عُلَماءِ الصَّحابَة الَّذينَ كانُوا يُخالِطونَ كُبراءَهُم، يَأتي بيتَ الرَّجلِ ممَّن هوَ دُونَه في المنزِلَة كما ترَى، فيَتَواضعُ له ويَأْتيه طلَباً للعِلْمَ على يَدَيه، ثمَّ إن وجَدَه نائماً انتَظَرَه حتى يَخرجَ إلَيْه، ولو أشارَ ابنُ عبَّاسٍ بأدنَى إشارَةٍ إلى إيقاظِ صاحبِ البَيْت لأَقَرُّوا عَيْنَه، فقَد جاءَ في رِوايَةٍ عن ابن أبي حُسَين قالَ: « كانَ ابنُ عبَّاس يَأتِي الرَّجلَ مِن أصحَابِ النَّبيِّ ﷺ يُريدُ أن يَسأَلَه عن الحَديثِ، فيُقالُ له: إنَّه نائِمٌ، فيَضْطجعُ على البَابِ، فيُقالُ له: ألاَ نُوقظُه؟ فيَقولُ: لاَ! »، وفي أُخرَى عن ابنِ عبَّاسٍ أَنَّه قالَ: « وجَدتُ عامَّةَ عِلمِ رَسولِ الله

ﷺ عندَ هَذا الحيِّ مِنَ الأَنصَارِ، إِنْ كنتُ لأَقيلُ ببابِ أَحَدِهم، ولو شِئتُ أن يُؤْذنَ لي علَيْه لأُذِنَ لي علَيْه، ولَكن أبتَغِي بذاكَ طِيبَ نَفْسِه »، انظُرْ المصدرَيْن السَّابقَيْن.

مِن أدَبِ السَّلفِ في التَّعامُل بالأموَالِ

عَن يُوسُفَ بنِ مَاهكَ المَكِّيِّ قَالَ: « كُنْتُ أَكْتُبُ لِفُلانٍ نَفَقَةَ أَيْتَام كَانَ وَلِيَّهُمْ، فَغَالَطُوهُ بِأَلْفِ دِرْهَم، فَأَدَّاهَا إِلَيْهِمْ، فَأَدْرَكْتُ لَهُمْ مِنْ مَالِهِمْ مِثْلَيْهَا، قَالَ: قُلْتُ أَقْبِضُ الأَلْفَ الَّذِي ذَهَبُوا بِهِ مِنْكَ؟ قَالَ: لاَ! حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَن ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ** » رَواه أبو داود (٣٥٣٤)، وصحَّحَه الألبانيُّ فيهِ.

لم يَرضَ هَذا الرَّجلُ أن يَأخذَ حقَّه من هَذا المالِ على الرّغم من أنَّ أصحابَه قَد حرَموه بَعضَ حقِّهِ؛ والسَّببُ في ذلكَ أنَّ أصحابَه كانُوا قَد ائتَمَنوه على أموَالِهم، فكَرِه الخِيانةَ، وأدَّى إلَيْهم أموالَهم من غَيرِ نُقْصانٍ!

وفي هَذه القصَّةِ بيانٌ رائعٌ لكَيفيَّة تَعامُل السَّلفِ معَ أَحاديثِ الرَّسول ﷺ وصِدْقهم في ذلكَ، ولو كانَ فيهِ

إضاعَةٌ لأكبرِ حظٍّ من حُظوظِ النَّفْس الَّتي تُحبُّها، ألاَ وهوَ المالُ.

ولو كانَ المُسْلمونَ اليَومَ على هَذا الخُلُق مِن أداءِ الأَمَانةِ وحِفْظ الحُقوقِ لكانَ مِن أَكْبرِ عَونٍ لهم على هِدايَةِ النَّاسِ إلى دِينِ الإسلاَمِ؛ لأنَّ الكُفَّارَ يُحبُّون المالَ حبًّا جُنونيًّا، بل لَيسَ لهم في الحَيَاة أمَلٌ بعدَ جَمعِ المالِ؛ لأنَّهم يَعيشُون لِبُطونهم وفُروجِهم، فلَوْ وَجَدوا من مُعامَلاَت المُسْلمين مِثْلما سبَقَ لرأَيتَ العَجَبَ في دُخولِهم في دِينِ الله أَفواجاً، بل حتى ضُعَفاء الإيمَانِ مِن المُسْلمين، فإنَّ أمثَالَ هَؤلاءِ جميعاً سَريعُو التَّأَثُّر بالمُعامَلاَت الماليَّةِ النَّزيهَة، ولذلكَ كانَ كُفَّارُ قُرَيش ـ على كُفْرهم وعتُوِّهم واستِكْبارِهم ـ يَضَعون أَمَاناتِهم عندَ النَّبيِّ ﷺ؛ لِمَا عرَفوا مِن خلُقِه العَظيم، ولَمَّا أخرَجَه الكُفَّارُ من بَلَدِه لم تَطِبْ نَفسُه ﷺ ببقَاءِ أَموَالِهم عندَه، ولَم يَكُن قادِراً على أن يَردَّها إلَيْهم مُناولَةً خَشيةً من أن

يَقتُلوه يَومَ أن كَانُوا يَطْلبونَ دَمَه، فانتَدَب عليًّا ﷺ لذلكَ، روَى البَيْهقي في «السُّنن الكُبْرى» (٦/ ٢٨٩) في هجرَة النَّبيِّ ﷺ عن عبد الرَّحمن بن عُويم بن ساعدة قال: حدَّثني رِجالُ قَوْمي مِن أَصحابِ رَسُول الله ﷺ ـ فذَكَرَ الحديثَ في خُرُوج النَّبِيِّ ﷺ ـ قالَ فِيهِ: «فَخَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَقَامَ عَلِيَّ بنَ أَبي طَالِب ﷺ ثَلاثَ لَيَالَ وَأَيَّامَهَا، حَتى أَدَّى عَن رَسُول الله ﷺ الوَدَائِعَ التي كَانَت عِنْدَه لِلنَّاس، حَتى إِذَا فَرَغَ مِنْهَا لحقَ رَسولَ الله ﷺ»، والحَديثُ حَسَّنه الأَلبانيُّ في «الإرواء» (١٥٤٦).

قد فعلَ هَذا رسولُ الله ﷺ مع قومٍ كفَّار، بل هؤلاَءِ الكفَّارُ هُم الَّذينَ أَخرَجوه مِن بَلدِهِ: خَيرِ بَلدٍ، وآذَوْه أشدَّ ما يُؤذَى نبيٌّ مِن قومِهِ: وهُو خيرُ نبيٍّ، خرَجَ وهم يَريدون حَبْسَه أو قَتْلَه أو طَردَه مِن بلَدِه، قالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ (الأنفال ٣٠)، معَ هَذا كلِّهِ، فلَمْ يُفكِّر رسولُ الله ﷺ في حِرْمانِهم مِن أَمانَاتِهم، ولاَ قالَ: (أَحْتَفِظُ منها بقَدْر ما أَتبلَّغ به الطَّريق؛ لأَنَّهم هُم المُتَسبِّبون في إخرَاجِي مِن بَلَدي)، معَ حاجَتِه ﷺ الماسَّةِ إلى المالِ؛ لأَنَّه طُرِدَ من البَلَد الأَمينِ وهو لاَ يملكُ ما يُسافرُ بهِ، ولولاَ أن أَنفَقَ علَيْه أبو بَكرٍ رضي الله عنه مَا كانَ يجدُ مَركباً يَركبُه، ولاَ راحِلةً لِزامِلَته، معَ ذلكَ لم يجِدْ بُدًّا علَيْه الصَّلاَة والسُّلاَم مِن أن يَردَّ إلَيْهم أَمانَاتِهم، ممتثِلاً الخُلُق الكَريمَ الَّذي نصَّ علَيْه ربُّهُ عزَّ وجلَّ بقَوْله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ (المؤمنون ٨).

كانَ ﷺ صاحِبَ أمانَةٍ بحقٍّ، وقَد أدَّاها إلى عدُوِّه، واليَومَ تَأْتينا شِرْذمةٌ مِن المُحتالِين على الشَّرْع باسمِ الجِهادِ، يَريدونَ إقناعَ المُسْلمين بضدِّ ذلكَ، حَديثُهم الأَكبرُ عن الحُكْم بما أنزَلَ اللهُ، وعن قِتالِ الأَعداءِ،

وعَن مُحاربَةِ اليَهُود والعِلْمانيِّين، يَشْرحون مَذاهِبَهم ويُشرِّحونها تَشْريحاً، ويُندِّدونَ بمُستَعمراتهم وابتِزَازهم أموالَ المُسْلمين، ثمَّ يَذهَبون إلى بلاَدِ الكُفَّار مُستَحلِّين كلَّ شيءٍ يَحُلُّ بأَيدِيهم، ليَعيشُوا فيها على الاختِلاَس والتَّلصُّص باسمِ أنَّها فَيْءٌ!!

والفَيْء هُو نوعٌ من الغَنائم الَّتي تُجتنَى من دَار الحَرب بغيرِ قِتالٍ، لاَ أن تُجتنَى غَدراً من دَار السِّياحةِ والإقامَة على الرَّاحَة في بلاَد بَني الأَصفَر! فهَلْ تلصُّصُهم هَذا ممَّا أنزَلَ اللهُ؟! فقَدْ شوَّهُوا صُورةَ الإسلاَم أيَّما تَشويهٍ، حتى اقترَنَت اللُّصوصيَّةُ بالإسلاَم في مُخيَّلةِ كَثيرٍ من الكُفَّار، وقَد علِمتُ ذلكَ ممَّن اتَّصلَ بي مِن بلاَدِ الكُفْر وممَّن لَقيتُ أيضاً، وقالَ بَعضُهم: عِندَنا جماعَةٌ ظَاهِرُها الصَّلاحُ، يَدخُلون الأَسواقَ ويَأخُذون منها ما شَاؤوا بلاَ ثمَنٍ، وإذا قِيلَ لهم: مَا لَكم؟! أَلَيْسَت السَّرقةُ محرَّمةً في دِينِكم؟! قَالوا: هَذا ممَّا أَفاءَ اللهُ علَيْنا من الغَنائم!!

الفَيءُ هو الغَنيمةُ البارِدةُ الَّتي يَغنَمُها الجيشُ من عدُوِّه الَّذي قامَت بينَه وبَينَهم حَربٌ في الأَصل، أي يَدخلُ المسلِمُون أرضَ العدُوِّ فيَستَسلمُ العَدوُّ، ويُسَلِّم نفسَه وما لدَيْه، فيَكونُ ذلكَ غَنيمةً للمُسْلمين، وأمَّا هَؤلاءِ اليَومَ، فإنَّهم يَدخُلون بلاَدَ الكُفَّار مُسالِمين، بَل يَدخُلونَها أذلَّةً صاغِرين، يتكفَّفونَ (الرَّحمَةَ!) من نِظامِ الكفَّارِ، وربَّما لم تَسمَن كُروشُهم إلاَّ بقُروشِهم الَّتي يُعطَوْنها كما يُعطَى المتسَوِّل؛ لأنَّ الغَالبَ أنَّهم يُقِيمونَ إقامَةَ اللاَّجئِين السِّياسيِّين، ثمَّ لاَ يجدُونَ أدنَى حرَجٍ من أَكلِ أموالِ النَّاسِ بالبَاطل، فيُسخِطون ربَّهم، ويُسخِطونَ النَّاسَ علَيْهم، ثمَّ لاَ يَأْبَهون لِتَشويهِ الإسلاَمِ والصَّدِّ عن سَبيلِه بمِثْل فِعالِهم هَذِهِ! هَذا حينَ يَكونُ الجِهادُ عَلى بَعضِ المَعَاني المحرَّفَة، معَ أنَّ قُدوَةَ المُسلِمين وسيِّدَ المُجاهِدِين ﷺ كانَ يرُدُّ أَمانَاتِ عدوِّه الَّذي نصَبَ له العِداءَ جِهاراً كَما مرَّ، فهَلْ من مُدَّكِّرٍ؟!

بَذلُ الخُلُق الحسَنِ للنَّاسِ جميعاً

بَذْلُ الخُلُق الحسَنِ ليسَ خاصًّا بالمُسْلمين، بل يبذُلُه المُسْلمُ في جُملَتِه لجَميعِ النَّاسِ مُسلِمِهم وكافِرِهم؛ فقَد قالَ اللهُ تَعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة ٨٣)، قالَ عَطاء وأبو جَعفَر علَيْهما رَحمَةُ الله: « للنَّاس كُلِّهم » أخرَجَه ابنُ أبي الدُّنيا في « الصَّمت » (٣٠٤) وابنُ جَرير الطَّبَري في « تَفسيره » (٢/ ١٩٧ـ ط هجَر) بإِسنادٍ حسَن، وفي لفظٍ عندَ ابنِ أبي الدُّنيا أيضاً (٣٠٨) بإسنادٍ حسَن أيضاً عن عَطاءٍ أنَّه قالَ: « للنَّاس كُلِّهم: المُشركِ وغَيره »، وقالَ رَسولُ الله ﷺ لمُعاذِ بنِ جَبَل: « اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » رَواه التِّرمذي (١٩٨٧)، وحسَّنَه الألبانيُّ فيهِ، وقَد نبَّهَ ابنُ رجَب رحمه الله في « جامع العُلوم والحِكَم » (ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ـ الهِلاَلي) على أنَّ النَّبيَّ

ﷺ كانَ أَوْصى بِهِ مُعاذاً رضي الله عنه حينَ أرسَلَه إلى اليمَن، وكانَ أهلُ اليمَنِ نَصارَى، كَما في الصَّحيحَيْن عَن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِمُعَاذِ بنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى اليَمَنِ: « **إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ** » الحَديث، ولعلَّ القاريءَ النَّبيهَ يتذكَّرُ هُنا بعضَ الأَحَاديثِ الَّتي بذَلَ فيهَا رَسولُ الله ﷺ خلُقَ العَفْو والحِلْم لِمَن آذاهُ من الكُفَّار والمُنافقِين، وقد اقتَدَى بهِ الصَّحابةُ في ذلكَ، فَكانُوا يُخالِقونَ الجَميعَ بالحُسْنى، ولو كانُوا من أهلِ الكِتابِ، فعَنْ مُجاهِدٍ رحمه الله « أَنَّ عَبْدَ الله بنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: **أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا اليَهُودِيِّ؟** سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ** » رَواه التِّرمذيُّ (١٩٤٣)، وصحَّحَه الألبانيُّ فيهِ، وعن ابن عبَّاس قالَ: « لَو قالَ لي فِرعَونُ: بارَكَ اللهُ فيكَ، قلتُ: وفِيكَ،

وفِرعَونُ قَد ماتَ » أخرَجَه البُخاري في « الأدَب المُفْرَد » (١١١٣) وابنُ أبي الدُّنيا في « الصَّمت » (٣٠٩)، وصحَّحَه الألبانيُّ في « صَحيح الأَدَب »، وعنه أيضاً قالَ: « رُدُّوا السَّلاَمَ على مَن كانَ: يَهوديًّا أو نَصرانيًّا أو مَجوسيًّا؛ ذَلكَ بأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النِّساء ٨٦) » أخرَجَه البُخاري في « الأدَب المُفْرَد » (١١٠٧) وابنُ أبي الدُّنيا في « الصَّمت » (٣٠٧) و(٣٠٩)، وحسَّنَه الألبانيُّ في « صَحيح الأَدَب »، وأمَّا رَميُ محقِّق كِتاب « الصَّمت » (ص١٧٧ـ ط دَار الكِتاب العرَبيِّ) ابنَ عبَّاس بالخَطَأ في هَذَا، واستِدلالُه علَيْه بنَهْي النَّبيِّ ﷺ عن بَدْء غَير المُسلِمين بالسَّلاَم، فهوَ تَعقُّبٌ غَريبٌ؛ لأنَّ النَّهيَ جاءَ عن بَدْئهم بالسَّلاَم، وكلاَمُ ابن عَبَّاس جاءَ في جَواز ردِّ السَّلاَم، فافتَرَقا.

ويُؤيِّدُ ما نحنُ بصَدَده أنَّ اللهَ تعالى لم يَنْهَنا عن البِرِّ

بهؤلاءِ على الوَصْفِ الَّذي في قَولِهِ سُبحانَه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة ٨).

ومِمَّا استُدِلَّ بهِ على ما نحنُ بصدَدِهِ الآنَ، قَولُه تَعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ (الإنسان ٨)، ففِيه أنَّ اللهَ مدَحَ الَّذينَ يُطْعِمون الأَسيرَ، ويَدخلُ فيهِ الأَسيرُ الكَافرُ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ لم يَكُن عندَه أَسْرَى منَ المُسلمِين يَوْمَ نُزولِ الآيَة، وإنَّما اتُّخِذَ السِّجنُ للمُسْلمين بعدَه ﷺ، وهوَ ما ذهَبَ إلَيْه ابنُ عبَّاسٍ كما في «تَفسيرِ ابنِ كَثيرٍ»، وكذلكَ قتادَةُ وعِكرمَةُ والحسَنُ رَحمَهم اللهُ، كَما في «تَفسير ابن جَرير الطَّبري» (٢٣/ ٥٤٤ـ هجر)، وقوَّاه رَحِمَهُ اللهُ، كَما استُدِلَّ بقَوْل رَسُولِ اللهِ ﷺ: «الصَّلاةَ! الصَّلاةَ! اتَّقُوا اللهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ»، وقَد

مرَّ، ومَوضعُ الشَّاهِدِ منه أنَّ الأَصلَ في مُلْك اليَمينِ أنَّهم كُفَّارٌ، معَ ذلكَ فقَدْ أمَرَ ﷺ بتَقْوى الله فيهم، وانظُرْ له «تَفسير ابن كَثير» عندَ الآيَة السَّابِقَة.

والإِحْسانُ إلى الحَيَوانِ أيضاً

عَن عَبْدِ الله بنِ جَعْفَرٍ قَالَ: « أَرْدَفَنِي رَسُولُ الله ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخلٍ[1]، قَالَ: فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ[2]، فَإِذَا جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ[3] فَسَكَتَ، فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا الجَمَلُ؟

---

(١) مَعنى (حَائِش نخلٍ): هوَ النَّخل المُلْتفُّ المجتَمِع، كَذا في « عَوْن المعبُود » (٧/ ١٥٨).

(٢) مَعنى (حائِطاً): أي بُسْتاناً (المصدَر السَّابق).

(٣) مَعنى (ذِفْرَاه): الذِّفْرَى منَ البَعيرِ مُؤَخّر رَأسه، وهوَ المَوْضعُ الَّذي يُعرَف مِن قَفاه، قالَه الخَطَّابي، وقالَ ابنُ الأَثِيرِ في « النِّهايَة »: وهيَ مُؤَنَّثة، وهُما ذِفريان، وأَلِفُها للتَّأْنيث (المصدَر السَّابق).

فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ: **أَفَلاَ تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ البَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟! فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ**[1] » رَواه أبو دَاود (٢٥٤٩)، وصحَّحَه الألبانيُّ فيهِ.

(١) مَعنى (تُدْئِبُه): تُكرهُه وتُتعِبُه وزْناً ومَعنًى (المصدَرُ السَّابق).

الخُلُقُ الحسَنُ لاَ يُبْذَل للخَلْق فقَطْ

مِمَّا يدلُّ على أهمِيَّةِ مَوضُوع الخُلُق، أنَّ رَسولُ الله ﷺ جمَعَ البرَّ كلَّه فيهِ، فعَن النَّوَّاسِ بنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: « سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَن البِرِّ وَالإِثْم؟ فَقَالَ: **البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ** » رَواه مُسلم.

ولاَ ريبَ أنَّه يَدخلُ في حُسنِ الخُلُق التَّأَدُّبُ معَ الله، ومنه الإيمانُ بهِ سُبحانَه، بل هوَ أَوْلى ما دَخلَ فيهِ هَذا المعنى؛ لأنَّ كلمةَ « البِرّ » تُطلَقُ على فِعْل جميعِ الطَّاعَات، قالَ ابنُ رجَب في شَرحِهِ لهَذا الحَديثِ في كِتابهِ « جامع العُلوم والحِكَم » (ص٣٧٩ـ سَليم الهِلالي): « مِن مَعْنى البرِّ أن يُرادَ بهِ فِعلُ جميع الطَّاعَات الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ، كقَوْله تَعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة ١٧٧)، وقد رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ سُئِلَ عن الإيمانِ؟ فتلاَ هَذِه الآيةَ[1]،

---

(١) ورَدَ عن أبي ذرٍّ مَرفوعاً من طَريقَيْن:

الأَوَّل: رَواه عنه مجاهِد، أخرَجَه عبدُ الرَّزَّاق (١١/ ١٢٨) وابن نَصر في « تَعْظيم قَدْر الصَّلاة » (٤٠٩) وأبو يَعلى كما في « إتحاف الخِيَرة المَهَرة بزَوائد المسانيد العشَرة » للبُوصِيري (ق ٢٧ـ أ) والخلاَّل في « السنة » (١١٩٧) وابن أبي حاتم في « تفسيره » كما في « تفسير ابن كَثير » والآجرِّي في « الشَّريعة » (٢٥١ـ٢٥٢) وابن بطَّة في « الإبانَة » (١٠٦٧، ١٠٨٠) والحاكم (٢/ ٢٧٢) وصحَّحَه، فتعقَّبَه الذَّهبي بقَوله: « كيفَ وهو مُنقطع؟! »، وقال ابنُ كَثير: « وهَذا مُنقطعٌ؛ فإنَّ مجاهداً

فالبِرُّ بهَذا المَعْنى يَدخُلُ فيهِ جميعُ الطَّاعاتِ الباطِنَة كالإيمَانِ باللهِ ومَلائكتِهِ وكُتُبه ورُسُله، والطَّاعَات الظَّاهِرَة كإِنفاقِ الأَمْوال فيما يحبُّه اللهُ، وإقَامِ الصَّلاةِ، وإيتَاءِ الزَّكاةِ، والوَفاءِ بالعَهْد، والصَّبرِ على الأَقْدار

لم يُدرك أبا ذرٍّ؛ فإنَّه ماتَ قَديماً »، وقالَ ابن حجَر في « المطالب العالية » (٣/ ٣٠٧) مُبيِّناً ضَعفَه: « مُرسلٌ صحيحُ الإسناد ».

الثَّاني: رَواه عنه القاسم بن عبدِ الرَّحمن، أخرَجَه إسحاق بن راهويه في « مُسنده » كما في « المطالب العالية » (٣/ ٧٤) وابن نصر (٤٠٨) والآجري (٢٥٣) وابن بطة (١٠٦٨) والواحدي في « الوسيط في تفسير القرآن المجيد » (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، وقالَ البُوصِيري في « مختصَر إتحاف السَّادة المَهَرة » (١/ ٩٨): « ورِجالُه ثِقاتٌ »، إلاَّ أَنَّه مَعلولٌ بالانقِطاع أيضاً، فقَد قالَ ابنُ كَثير في « تفسيره »: « رَواه ابن مردويه، وهَذا أيضاً مُنقطعٌ، واللهُ أعلَم »، وقالَ ابنُ حجر في المصدَر السَّابق: « وهَذا مُنقطعٌ، وله طَريقٌ أصحُّ منه في التَّفسير ».

ووَرَدَ بمعناه بسنَدٍ صَحيحٍ عن قَتادة مُرسلاً، أخرَجَه ابنُ جَرير في « تفسيره » (٢٥١٩).

كالمَرَضِ والفَقْر، وعلى الطَّاعاتِ، كالصَّبرِ على لِقاءِ العَدوِّ، وقَد يَكونُ جَوابُ النَّبيِّ ﷺ في حَديثِ النَّوَّاس شامِلاً لهَذه الخِصالِ كلِّها؛ لأنَّ حُسْن الخُلُق قد يُرادُ بِهِ التَّخلُّق بأخلاَقِ الشَّريعَة، والتَّأدُّب بآدَاب الله الَّتي أدَّبَ بها عِبادَه في كِتابِهِ، كما قالَ لرَسولِه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم ٤)، وقَالَت عائشَةُ رضي الله عنها: (كانَ خُلُقُه ﷺ القُرْآن)[1]، يَعني أنَّه يتأدَّبُ بآدابِهِ، فيَفعلُ أوامِرَه ويتَجنَّبُ نَواهيَه، فصارَ العمَلُ بالقُرْآن له خُلُقاً كالجِبِلَّة والطَّبيعَة لاَ يُفارِقُه، وهَذا مِن أَحْسن الأَخلاَق وأَشْرفِها وأَجمَلِها، وقَد قيلَ: إنَّ الدِّينَ كلَّه خُلُقٌ ».

وقد كانَ هَذا المعنى الواسِعُ مَعروفاً عندَ السَّلف، فقَد نقَلَ ابنُ القيِّم رحمه الله في « تَهذيب السُّنن » كَما في حَاشيَة « عَوْن المَعْبود » (١٣/ ٩١) عن بَعضِ السَّلَف

---

(١) رَواه مسلم (٧٤٦).

قَولَه: « حُسنُ الخُلُق قِسْمان: أحَدُهما معَ الله عزَّ وجلَّ، وهوَ أن يَعْلم أنَّ كلَّ ما يَكونُ مِنكَ يُوجبُ عُذراً، وكلُّ مَا يَأتي مِن الله يُوجبُ شُكراً، فلاَ تَزالُ شاكِراً له مُعتَذِراً إلَيْه سائِراً إلَيْه بينَ مُطالَعَة مِنَّته وشُهودِ عَيْب نَفْسِك وأعمالِك، والقِسْم الثَّاني: حُسنُ الخلُقِ معَ النَّاسِ، وجِماعُه أَمْران: بَذْلُ المعرُوفِ قَولاً وفِعلاً، وكفُّ الأَذى قَولاً وفِعلاً ».

فيَكونُ بهَذا المَعنى كلُّ مَن كانَ حسَنَ الخُلُق معِ الخَلْق، لكنَّه لاَ يَعبدُ الخَالقَ ولاَ يُوحِّدُه بالعِبادةِ يَكونُ سيِّءَ الخُلُق؛ لأنَّه لم يُحقِّق سيِّدَ الخُلُق، ألاَ وهوَ التَّأدُّب معَ الخالقِ المُحْسنِ البَرِّ الرَّحيمِ الَّذي يَغْذُوه والخَلْقَ بنِعَمِه، بل لاَ يُقبَلُ منه شيءٌ من ذلكَ، فقَد روَى مُسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! ابنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ المِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لَا يَنْفَعُهُ؛ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ

اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ».

وهَذا المَعنى الَّذي نحنُ بصَدَده يَغفلُ عنه أَكثرُ العالَمِينَ، فكَم نَسمعُ من النَّاسِ مَن يُردِّدُ حَديثَ « الدِّينُ المُعامَلَةُ »، ويُفسِّرونَه على مُعاملَةِ الخَلْق فقَطْ، بَل سَمعْنا مَن يُردِّدُه وهوَ لاَ يُصلِّي لله رَكعَةً!! ولَو صحَّ هَذا الحَديثُ لكانَ دالاًّ على مَعنى مَا ذكَرَه ابنُ رجَب آنِفاً، لاَ على مُعامَلة الخَلْق فقَطْ، فهؤلاَءِ الَّذينَ يَستَدلُّون بِهِ يجمَعونَ بينَ سُوءِ الفَهْم وسُوءِ الاستِدلاَل، أمَّا سوءُ الفَهْم فقَدْ مَضى ما فيهِ، وأمَّا سوءُ الاستِدْلال؛ فلأنَّ هَذا الحَديثَ لَيسَ مِن كَلام النَّبيِّ ﷺ، بل لاَ أصلَ له في دَواوينِ السُّنَّة، انظُرْ « السِّلسلَة الضَّعيفَة » للعلاَّمة الألباني رحمه الله (٥/ ١١)، ويُغْني عنه غَيرُه كَما مرَّ.

حَلُّ إِشْكالَيْن:

الأَوَّل: هَذا التَّحقيقُ البَارعُ من هَؤلاَءِ العُلَماء يحلُّ إِشْكالاً طَالما علَقَ بأَذهَانِ طلبَةِ العِلْم المُطَّلعين. على

كتُبِ التَّفسيرِ، فقَد جاءَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما ومُجاهد وغَيرِهِ في تَفسيرِ قَولِهِ تَعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ أَنَّه الدِّينُ، وأيضاً فُسِّر بالإسلاَم، كَما في « تفسير ابن جَرير » وغَيرِه، وبلَغَ بهم استِشْكالُهم إلى تَغْليطِ هؤلاَءِ المُفسِّرين الكِبار من السَّلَف، بل لاَ يَشكُّونَ في ذلكَ، وإنَّما حمَلَهم علَيْه توهُّمُهم أنَّ الخُلُقَ خاصٌّ بمُعاملَة الخَلْق، فكَيفَ يُفسَّر الخلُقُ الَّذي في الآية بالدِّينِ كلِّه؟! هَذا مَوضعُ الإِشْكال عندَهم، وكَثيراً ما يَقعُ الغلَطُ منَ النَّاسِ على السَّلَف بسبَبِ عدَم فَهْم كلاَمِ السَّلفِ من جِهةٍ، وبسبَبِ عدَمِ تَحريرِ المُصطلَحات مِن جهةٍ أُخْرى، وقَد يُهجَرُ التَّفسيرُ السَّلفيُّ من أَجْل ذلكَ، كَما حصَلَ لهؤلاَءِ المُشار إلَيْهم هُنا؛ فقَدْ اصطلَحوا على أنَّ كلِمةَ (الخُلُق) خاصَّةٌ بمُعاملَةِ الخَلْق فكانَ مِنهم استِغْرابُ تَفسيرِ السَّلَف لهَذهِ الكَلِمة بأَوسَع ممَّا فَهِموا، وزِيادَةً في البَيَان أَنقلُ ما

قالَه ابنُ تَيمية في « مجموع الفَتاوَى » (١٠/ ٦٥٨ـ ٦٥٩)، قالَ: « وجماعُ الخُلُق الحسَنِ معَ النَّاسِ أن تَصِلَ مَن قطَعَكَ بالسَّلاَم والإِكْرام والدُّعاءِ له والاسْتغفارِ والثَّناءِ علَيْه والزِّيارَةِ له، وتُعطِي مَن حَرمَكَ مِن التَّعْليم والمَنفعَةِ والمالِ، وتَعْفو عمَّن ظلَمَك فى دَمٍ أو مَالٍ أو عِرْضٍ، وبَعضُ هَذا واجِبٌ، وبَعضُه مُستَحَبٌّ، وأمَّا الخُلُقُ العَظيمُ الَّذي وصَفَ اللهُ بِهِ محمَّداً ﷺ فهوَ الدِّينُ الجَامِع لجَميعِ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ مُطلقاً، هَكَذا قالَ مجاهِد وغَيرُه، وهوَ تَأويلُ القُرْآن، كما قالَت عَائشةُ رضي الله عنها: (**كانَ خُلُقُه القُرآنَ**)، وحَقيقتُه المُبادرَةُ إلى امتِثال مَا يحبُّه اللهُ تَعالى بطِيبِ نَفْسٍ وانشِراحِ صَدْرٍ، وأمَّا بَيانُ أنَّ هَذا كلَّه في وَصيَّة الله فَهو أنَّ اسمَ تَقوَى الله يجمَعُ فِعلَ كلِّ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ إيجاباً واستِحْباباً، ومَا نهَى عَنه تحرِيماً وتَنزِيهاً، وهَذا يجمَعُ حُقوقَ الله وحُقوقَ العِبادِ، لَكِن لمَّا كانَ تارَةً يعنى بالتَّقوَى خَشيَةَ العَذابِ المُقْتضيَة

للانكِفافِ عن المحارِمِ جاءَ مُفسَّراً في حَديثِ مُعاذٍ[1]، وكَذلكَ في حَديثِ أبي هُرَيرة رضي الله عنه الَّذى رَوَاه التِّرمذي وصحَّحَه، قيلَ: (يا رَسولَ الله! مَا أَكْثرُ مَا يُدخلُ النَّاسَ الجنَّةَ؟ قالَ: تَقوَى الله وحُسنُ الخُلُق، قِيلَ: ومَا أَكثرُ مَا يُدخلُ النَّاسَ النَّارَ؟ قالَ: الأَجْوَفان: الفَمُ والفَرْجُ)، وفي الصَّحيحِ عن عَبد الله بنِ عمَرَ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ: (أَكْمَلُ المُؤْمنِينَ إيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً)، فجعَلَ كَمالَ الإيمَانِ في كَمالِ حُسْنِ الخُلُق »، ولذَلكَ قالَ ابنُ القيِّم في « مَدارج السَّالكِين » (٢/ ٣٠٧): « الدِّينُ كلُّهُ خُلُقٌ، فمَن زادَ عليْكَ في الخُلُق زادَ عليْكَ في الدِّين ».

الإِشْكالُ الثَّاني: وإذا عُرِف هَذا، فثَمَّ إشكالٌ آخَرُ وقَعَ فيهِ بَعضُ الكُتَّاب، ألاَ وهوَ توهُّمُهم أنَّ الأَخلاقَ

---

(١) يُريدُ الحَديثَ الَّذي مرَّ بلَفظ: « اتَّقِ الله حَيْثُما كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ ».

أهمُّ من التَّوحيدِ؛ وقَد ذهَبوا إلى هَذا حينَ قرؤوا بَعضَ الأَحاديثِ الَّتي فيها التَّنصيصُ على التَّفْضيل المُطلَق للخُلُق الحسَنِ وَحدَه، كمِثْل حَديث « **البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ** »، وحَديث « **مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُق** »، وحَديث أَنَّه سُئلَ ﷺ: « **مَا خَيرُ ما أُعْطيَ العَبدُ؟ فقالَ: حُسْنُ الخُلُق** »، وكلُّه قَد مرَّ تخريجُه، فرَأَوا ـ بجَهْلهم ـ أنَّ هَذه النُّصوصَ تَقضي على النُّصوصِ الأُخرَى الَّتي أَتَتْ بتَفضيلِ التَّوحيدِ على غَيرِه مُطلقاً، فهوَّنوا من شَأنِ التَّوحيد، وكوَّنوا لهم جماعَاتٍ دَعويَّةً لاَ تكادُ تُعْنَى به، وزَعزَعوا ثِقةَ النَّاسِ بدَعوةِ الأَنبيَاء عليهم السلام، هَذا من جِهَةٍ، ومن جِهةٍ أُخرَى جرَّؤوا غَيرَهم على اعتِقادِ التَّناقضِ في نُصُوص الشَّريعَة بمِثْل ما ذُكِر، وبَعدَ نَقلِ كلاَم ابن تَيْمية وابن رجَب وابنِ القيِّم يَظهرُ للموَفَّق أَنَّ التَّوحيدَ داخِلٌ في هَذه النُّصوصَ دُخولاً أَوَّليًّا، فلاَ إِشْكالَ حِينَئذٍ ولاَ تَناقُض، واللهُ وليُّ التَّوفيق.

يُكتشَفُ المَرْءُ في بَيْتِهِ

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي» رَواه التِّرمذي (٣٨٩٥)، ورَواه ابن ماجه (١٩٧٧) عن ابن عَبَّاس، وصحَّحَه الألبانيُّ في «السِّلسلَة الصَّحيحَة» (٢٨٥)، وقَد جاءَ بلَفظ: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقاً» أخرَجَه التِّرمذيُّ (١١٦٢) من حَديثِ أبي هُرَيرة، وابنُ ماجَه (١٩٧٨) من حَديث عَبدِ الله بن عَمرو، وصحَّحَه الألبانيُّ في المصدَرِ السَّابقِ (٢٨٤).

هَذا حَديثٌ عَظيمٌ، لم يَعرِف أكثرُ النَّاسِ قَدرَه، ولَمَّا كانَت المرأةُ ضَعيفةً، فإنَّ الرَّجلَ يُمتحَنُ بها؛ لأَنَّ مَن كانَ التَّجبُّرُ والتَّكبُّرُ مِن خُلُقه، فسيَظهَرُ ذَلكَ في تسلُّطِه، وشرُّ التَّسلُّط ما كانَ على مَن يَقْدر، بل مَن كانَ سافِلَ الخُلُق دَنيءَ المُروءَة قَليلَ الرَّحمَة ظهَرَ ذَلكَ في مُعاملاَته

للضُّعَفاء، بل التَّسلُّط على الضُّعَفاءِ هوَ سَبيلُ الضُّعَفاء؛ ولو كانُوا في خُلُقهم أَقْوِيَاءَ ما قسَتْ قُلوبُهم على أهلِ الرَّحمَة، فمَن ملَكَ نَفسَه عندَ هؤلاَءِ ظهَرَت خيريَّتُه، ولذَلكَ قالَ المُباركفوري في « تحفَة الأَحْوذي » (٤/ ٢٧٣) عندَ شَرْح اللَّفظِ الأَخيرِ للحَديثِ: « لأنَّهنَّ محلُّ الرَّحمَة لضَعْفِهنَّ ».

واستَشكلَ بَعضُهم منَ الحَديثِ الخَيريَّةَ المذكُورَةَ فيهِ، قالَ السِّندي في « حَاشيَتِه »: « ويحتَملُ أن المتَّصفَ بهِ يُوَفَّق لِسائرِ الصَّالحَاتِ، حَتى يَصيرَ خَيِّراً على الإطلاَقِ، واللهُ أَعلَم »، هَذا مِن حيثُ التَّفسيرُ العامُّ للخيريَّة، وأمَّا تَفصيلُ التَّفسير لها، فقَدْ قالَ الشَّوكاني في « نَيْل الأَوْطار » (٦/ ٣٦٠): « في ذلكَ تَنبيهٌ على أَعْلى النَّاسِ رُتبةً في الخَيرِ وأحَقِّهم بالاتِّصَاف بهِ، هوَ من كانَ خَيرَ النَّاسِ لأَهْله؛ فإنَّ الأَهلَ هُم الأَحقَّاءُ بالبِشْر وحُسْن الخُلُق والإِحْسان وجَلْبِ النَّفْع ودَفْع

الضُّرِّ، فَإذا كانَ الرَّجلُ كَذلكَ فَهو خَيرُ النَّاسِ، وإن كانَ عَلى العَكْس مِن ذلكَ فهو في الجانِبِ الآخَرِ مِن الشَّرِّ، وَكَثيراً ما يقَعُ النَّاسُ في هَذه الوَرْطة، فترَى الرَّجلَ إذا لَقيَ أهلَهُ كانَ أَسوأَ النَّاسِ أخلاَقاً وأشحَّهُم نَفساً وأقلَّهُم خَيراً، وإذا لقِيَ غَيرَ الأَهْل منَ الأَجَانب لاَنَت عَريكتُه وانبسَطَت أخلاَقُه وجادَتْ نَفْسُه وكثُرَ خَيرُه، ولاَ شكَّ أنَّ مَن كانَ كَذلكَ فَهو محرومُ التَّوْفيق، زائغٌ عن سَواء الطَّريقِ، نَسأَلُ اللهَ السَّلاَمة »، وقد تقَصَّدتُ نقلَ كلاَمِه هَذا رحمه الله؛ لأَنَّه نَصيحةٌ غَاليةٌ منه للأَزواجِ والآبَاءِ الَّذينَ تحقَّقَ من وَاقع كَثيرٍ مِنْهم الغَفلةُ الشَّديدةُ عن هَذا الَّذي نبَّهَ عليْه مَن لاَ يَنطقُ عن الهوَى ﷺ، وبهَذا يَزولُ إشكالُ مَن استَشكلَ هَذه الخَيريَّةَ المُطْلقةَ، فكَم تجد الرَّجلَ معَ زَميلِه في الوَظيفَةِ كَريماً لَطيفاً، فَإذا تحوَّلَ إلى بَيْته كانَ بخيلاً فظًّا مُخيفاً! معَ أنَّ أحَقَّ النَّاسِ بلُطْفه وبرِّه أهلُه؛ فإنَّ الأَقْرَبين أَوْلى

بالمَعْروف كَما قيلَ، وهُمْ أَحقُّ برَحمتِه وحُسْن سِياسَتِه، وأحقُّهم بصَبرِه علَيْهم معَ إقالَةِ عَثَراتهم ومُعالجَة أَخْطائِهم بالحِكْمة والأَنَاة الَّتي يَستَعملُها معَ غَيرِهم.

وإذا كانَ قد استُشكِلَ ـ كما قلتُ قَريباً ـ أن يَكونَ خيرُ النَّاسِ لأَهْلِه خيرَهم على الإطلاَقِ، فَها هُنا أمرٌ يحلُّ الإشكالَ من أصلِهِ إن شاءَ اللهُ، وهوَ أنَّ حَقيقة المَرءِ تُعرَف في بَيْته أكثرَ منه خارِجَه، وهَذه قاعِدةٌ لاَ تتخلَّفُ، والسِّرُّ في هَذا أنَّ الإنسَانَ قَد يَصطَنعُ خارِجَ بَيْتِهِ خُلُقاً حسَناً ويَتصبَّرُ علَيْه؛ لأنَّ تَواجدَه معَ النَّاسِ خارِجَ بَيْته قَصيرُ المدَى، فهوَ معَ واحِدٍ نِصفَ ساعَةٍ، ومعَ ثانٍ ساعَةً، ومعَ ثالثٍ أقلَّ من ذلكَ أو أكثَر، كلُّ هَؤلاَء يَستَطيعُ أن يُجاملَهم بخُلُقٍ مُصطنَع وتَمثِيلِ شَخصيَّةٍ غيرِ شَخصيَّته، كما يَفعلُ بعضُ الصُّنَّاع أوِ الموظَّفِين، يتَظاهَرُ بالخُلُق والسَّمْت الحسَنِ وتَرْك الخَرَق والحُمْق، لكنَّه لاَ يَستَطيعُ أن يَبقَى في بَيْته على هَذهِ

الشَّخصيَّةِ المَوَّهَة طِيلةَ عمرِهِ؛ لأَنَّه لاَ بدَّ لصَبرِه من نَفادٍ، حتى يَعودُ إلى أصلِهِ الَّذي لاَ تكلُّفَ فيهِ، كَما قِيلَ: غلَبَ الطَّبعُ التَّطبُّع، أمَّا التَّكلُّف المؤَقَّتُ فيَستَطيعُه هؤلاَءِ، كما يفعَلُه أيضاً بعضُ الفُسَّاق إذا أَرادُوا أن يخطبُوا النِّساءَ، حيثُ يخالطُونَهنَّ زمناً ويُعاشِرونَهنَّ، فيُظْهر كِلاَ الطَّرفَيْن محِاسَنَه للآخَر ويَكتمُ مَساوئَه، فإذا جمَعَ اللهُ بَيْنهما بزَواجٍ ظهَرَ كلٌّ منهما على حَقيقَتِه، وأَكثَرُ المتَزوِّجِين بهَذه الطَّريقَةِ الغَربيَّةِ الغَريبَةِ عن الطَّريقةِ الإسلاَميَّةِ يَقومُ زَواجُهم على الغشِّ والخِداع، ولهَذا يَكثرُ الطَّلاقُ فِيهم بشَكلٍ فَظيعٍ، فالأَخلاَقُ الحَقيقيَّةُ للمَرءِ يُفتَّشُ عنها في البُيُوت، هُنَاكَ يُكتشَفُ لينُه من فَظاظَتِه، وكرَمُه من بُخلِه، وأَناتُه من عجَلتِه، كَيفَ يُعاملُ أمَّه وأَبَاه؟ مَا أَشَدَّ العُقُوقَ في هَذا الزَّمَان! كَيفَ يُعاملُ إِخوانَه؟ ما أشدَّ الفَظاظَةَ في هَذا الزَّمانِ! كلُّ هَذا لأَنَّ التَّعايشَ يُورِّث المَعرفةَ، فاعْرِف نَفسَك في بَيْتك،

كيفَ صَبرُكَ على أَولاَدِك؟ كَيفَ صَبرُكَ على زَوْجك؟ كَيفَ تحمُّلُك لَمسؤوليَّة البَيْت؟ ثمَّ إنَّ الَّذي لم يُحْسن قِيادَةَ بَيتٍ، كيفَ يحسنُ قِيادَةَ أُمَّةٍ؟! هَذا سرُّ قَوْل النَّبيِّ ﷺ: «**خَيرُكُمْ خيرُكُمْ لأَهْلِهِ**».

ثمَّ إنَّ النَّاسَ إذا كَانُوا خارِجَ بُيُوتِهم تَأَدَّبَ بَعضُهُم معَ بَعض؛ لأنَّ قلَّةَ اختِلاَطِهم فيما بَيْنهم تَبْني بَيْنَهم حاجزاً من الاحتِرَام والتَّوقير، لكنَّ كَثرةَ المُخالَطة تكسرُ هَذا الحاجزَ، فإذا كُسِر الحاجِزُ كانَ المرءُ معَ صَديقِهِ أكثَرَ صَراحةً منه مِن ذِي قَبْل، وكُلَّما كانَ صَريحاً كانَ أَقرَبَ إلى الوُضُوح والحَقيقَةِ.

ونَظيرُ حَديثِ البَابِ ما رَواه عَبْدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ**» رَواه التِّرمذي (١٩٤٤)، وصحَّحَه الأَلبانيُّ فيهِ.

لَمَّا كانَ الأَصحابُ والجِيرانُ نُظَراءَ للأَهْل في

المُخالطَة والمُنادمَة والاطِّلاَع على خَبايَا الأُمُور، كانَتْ خيرِيَّتُه نَتيجَةَ التَّصبُّر على مُعاناةِ ما يَكونُ بينَه وبينَهم، ولن يَمدَحَه هَؤلاَءِ إلاَّ وقَد رَأَوا منه أحسَنَ الأَخلاَق وأَفضلَ العِشْرة، فرَجعَ الأَمرُ حِينئذٍ إلى أنَّ المَرءَ لاَ يُعرَف على حَقيقَتِه إلاَّ بعدَ مُعاشَرَة، وهَذا لاَ يتأَتَّى لأَحَدٍ كما يتأَتَّى لأَهْلِه، ولِجارِه، ولصَاحبِهِ المُلاَزِمِ له...

ومِن النَّاسِ مَن يَكونَ خَجولاً ضَعيفَ الشَّخصيَّة، قَليلَ الصَّبرِ على الأَذيَّة، فيَعيشُ مُعتَزِلاً مجُتَمعَه، ويَحسبُه النَّاسُ حَيِياً غِرًّا كَريماً صَموتاً لاَ يَعرفُ الغِيبةَ ولاَ يُحسنُ الظُّلم، بيدَ أَنَّه في بَيتِه ومعَ أَهلِ مَعرفَتِه عَنيفٌ جدًّا، وما منَعَه أن يَكونُ على صُورتِهِ الحَقيقيَّةِ إلاَّ ضَعفُه عندَ مُقابلَةِ الغُرَباء، والَّذي يَزيدُ مِن عُنفِه ويُربِّي فيهِ القَسوةَ والجَفاءَ أَكثَر هوَ بُعدُه عن النَّاسِ، فمِثْلُ هَذا الصِّنفِ منَ النَّاس لاَ يَكادُ يُعرَف إلاَّ في بَيْته أو في مُناسَباتِ الامتِحَانِ، كالسَّفَر الَّذي غالِباً ما يُسفِر عن

أخلاَق النَّاس، أو التَّعامُل بالمَال الَّذي تَميلُ معَه النُّفوسُ، أو الجِوَار كَما مرَّ، ولذَلكَ قالَ خَرَشَة بنُ الحُرِّ: « شَهدَ رَجلٌ عندَ عُمَر بن الخطَّاب ﷺ بشَهادةٍ، فَقالَ له: لَستُ أَعْرفُك، ولاَ يَضرُّك أَن لاَ أَعرِفَك؛ ائتِ بمَن يَعْرفُك، فَقالَ رَجلٌ مِن القَوْم: أَنَا أَعرفُه، قالَ: بأَيِّ شَيءٍ تَعرفُه؟ قالَ: بالعَدالَة والفَضْل، فَقالَ: فَهو جارُكَ الأَدْنى الَّذي تَعرفُ لَيلَه ونَهارَه ومدخَلَه ومخرَجه؟ قالَ: لاَ! قالَ: فمُعامِلُك بالدِّينَار والدِّرهَم اللَّذَين بهما يُستدَلُّ على الوَرَع؟ قالَ: لاَ! قالَ: فرَفيقُك في السَّفَر الَّذِي يُستدَلُّ بهِ على مَكارِم الأَخلاَق؟ قالَ: لاَ! قالَ: لَستَ تَعرفُه! ثمَّ قالَ للرَّجُلِ ائتِ بمَن يَعرفُكَ » أخرَجه ابن أبي الدُّنيا في « الصَّمت » (٦٠٣) والعُقَيلي في « الضُّعفاء » (٣/ ٤٥٤) والبيهَقي (١٠/ ١٢٥) وغيرُهم، وقَد ذكَرَ صَاحب « سبل السَّلاَم » (٤/ ١٢٩) أنَّ ابن كَثير حسَّنه في « الإرشَاد »، وكذَلكَ حسَّنَه العَجْلوني في

« كَشْف الخَفاء » (١/ ٥٤٩)، وأمَّا الانقِطاعُ الَّذي ضعَّفَه بِهِ محقِّقُ « الصَّمت » في طَبعَة دَار الكِتاب العرَبيِّ فهوَ مُنتفٍ عندَ غَير ابن أبي الدُّنْيا، وبالله التَّوفيقُ.

فكانَ شأنُ هَذا الحَديثِ عَظيماً، وهَذه النَّفسيَّةُ البشريَّةُ الَّتي يُخبرُنا بها الرَّسولُ ﷺ لاَ نجدُ تَعريفَها عندَ رُوَّاد الأَخلاَقِ مِن ذَوي التَّخصُّصاتِ التَّربويَّةِ والثَّقافَاتِ العالِيَة مَهْما سَمَتْ شَهادَاتُهم، وقَد تَقضي البشَريَّةُ دَهراً من الزَّمَن وألوَاناً من التَّجارِب للوُصولِ إلى بعضِ القَواعِدِ الأَخلاَقيَّةِ، وقَد لاَ تَصلُ إلاَّ إلى قَواعِد مُخالِفةٍ للفِطرَة البَشريَّةِ، لَكنِ الرَّسولُ الأُمِّيُّ ﷺ يختَصرُ لها الحقَّ مِنْها في جُملةٍ واحدَةٍ كمِثْل هَذا الحَديثِ لو كانَتْ تَعقِل، هَذا أمرٌ لم يَهتَدِ إلَيْه أحَدٌ مِنَ الخَلْق إلاَّ رَسول الله ﷺ؛ لأنَّ كلاَمَه وحيٌ منَ الله تَعَالى، وهَذا واحدٌ مِن دَلاَئلِ صِدقِ نبُوَّتهِ ﷺ.

خُلُقٌ نبويٌّ عظيمٌ

لبَيَان ما كانَ عليَه رَسولُ الله ﷺ من خُلُقٍ معَ أهلِهِ، فقَد روَى مُسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: « مَا ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلاَ امْرَأَةً وَلاَ خَادِمًا، إلاَّ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ الله، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إلاَّ أَنْ يُنْتَهَكَ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ الله فَيَنْتَقِمَ لله عَزَّ وَجَلَّ ».

وهَذا خُلُقُه ﷺ معَ الضُّعفاء كالنِّساءِ والخَدَم.

وروَى البخاري ومُسلم عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ: « خَدَمْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، وَالله! مَا قَالَ لِي أُفًّا قَطُّ، وَلاَ قَالَ لِي لِشَيْءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا؟ وَهَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا؟ »، وهَذا خُلُقُه ﷺ معَ صبيٍّ، وروَى مُسلم (٢٣١٠) عنه أيضاً أنَّه قالَ: « كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا؛ فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: وَالله! لاَ أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ الله

ﷺ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى صِبْيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: يَا أُنَيْسُ! أَذَهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ! أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ أَنَسٌ: وَاللهِ! لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ أَوْ لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: هَلاَّ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ ».

هَذا الخُلُق لاَ يَقوَى علَيْه إلاَّ نبيٌّ! وإلاَّ فَلْتَرِنا الحَضاراتُ في عُظَمائِها ـ منذُ خلقَ اللهُ البشَرَ ـ ذا رِئاسةٍ يُعامِلُ خدَمَه ونِساءَه هَذه المُعاملَة، ثمَّ مَن ذا الَّذي عاشَرَ أحداً سنةً واحدَةً فقَطْ ولم يُسْمِعْه كلمةَ أُفٍّ عشَراتِ المرَّات؟! إنَّه ليَكونُ بينَ الرَّجلَيْن مودَّةٌ عَظيمةٌ وإخاءٌ قَديمٌ، فإذا عاشَرَ أحدُهما الآخَرَ في سَفْرةٍ واحِدةٍ رجَعَا بغَيرِ القُلوبِ الَّتي كانَا علَيْها، واللهُ المُسْتعانُ.

فاللَّهمَّ كما أَحسَنتَ خَلْقَنا، فأَحسِنْ خُلُقَنا، والحمدُ للهِ ربِّ العَالمين.



الفهارس

المقدمة ٣
من فَضائلِ الخُلُق الحسَن ٤
الملائكَةُ قَريبةٌ من ذِي الخُلُق الحسَنِ والشَّياطينِ بَعيدةٌ مِنه........... ٨
العنايةُ بالأخلاَق ٢٥
من آثارِ الخُلُق الحسَن........................ ٣٤
أَجْمعُ آيَةٍ في مُعاشَرَة النَّاسِ ٣٧
من أدَب الصَّحابَة مع رَسُول الله ﷺ........................ ٤٣
أدَب المتعلِّم والمعلِّم ٤٧
من أدَب السَّلَف في التَّعامُل بالأَموال........................ ٥١
حُكْم الاستِحْواذ على أَمْوال الكفَّار........................ ٥٢
بذلُ الخلُقِ الحسَن للنَّاسِ جميعاً ٥٧
والإحسانُ إلى الحَيَوان أيضاً ٦٢
الخلُقُ الحسَنُ لاَ يُبذل للخَلْق فقط ٦٤
يُكتشفُ المرءُ في بَيْته ٧٤
خلقٌ نبويٌّ عظيمٌ........................ ٨٣


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الموعظة الحسنة في الأخلاق الحسنة

